الدار المصرية اللبنانية
سلسلة
الجوائز
117
مدونة أبو عبدو
مارجريت أتوود
رواية
البينيلوبية
أسطورة بينيلوب وأوديسيوس
ترجمة : عمرو خيري

الكاتبة:

مارجريت أتوود، كاتبة كندية وُلدت فى أوتاوا عام 1939، ومن أكثر كتاب الأدب فى عصرنا الحديث حصادا للجوائز والتكريم.

- أحد اهم كتاب الرواية والقصص القصيرة في العصر الحديث، بدات كشاعرة ابتداءً من عام 1961، ثم اتجهت لكتابة الرواية فاصدرت روايتها الأولى عام 1969 "المرأة الصالحة للأكل" وتوالت أعمالها المهمة حتى أحداث رواياتها "عام الطوفان" الصادرة عام2009 .
- هى شاعرة وروائية وكاتبة قصص قصيرة وكتب للأطفال ودراسات نقدية، وهى غزيرة الإنتاج ولقد تجاوزت أعمالها الأدبية الأربعين عملا.
- حازت طوال مشوارها الأدبى على أكثر من خمسين جائزة دولية منها جائزة البوكر، وقد رشحت لها خمس مرات وجائزة الحاكم العام الكندية المرموقة مرتين،ورشحت لها سبع مرات .
- كتابها "البقاء.. دليل تصنيفى إلى الأدب الكندى" يُدرس كمدخل للأدب الكندى فى برامج "الدراسات الكندية" الجامعية على مستوى العالم.
- ناشطة سياسية مهتمة بالبيئة، وعضوة بحزب الخضر الكندى.
- نائبة رئيس تحرير مؤسسة "قلم الدولية" لحرية التعبير والإبداع والصحافة.

الجائزة:

وسام الفنون والآداب الفرنسى

5992

البينيلوبية

رئيس مجلس الإدارة	أ . د . أحمد مجاهد
رئيس التحرير	د . سهير المصادفة
إدارة التحرير	محمد عامر فاضل
سكرتير التحرير	وردة عبد الحليم
التصميم الجرافيكى	هند سمير
الإشراف الفنى	صبرى عبد الواحد
	على أبو الخير
تجميع كمبيوتر	عصام الديب
إخراج تنفيذى	محمد خليل حنفى

أتوود، مارجريت.

البينيلوبية، أو، أسطورة بينيلوب وأوديسيوسى/ مارجريت أتوود: ترجمة: عمرو خيرى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤.

١٨٤ص: ٢٣,٥ سم.

تدمك ٠ ٩٠٢ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ الأساطير.

أ ـ خيرى، عمرو (مترجم)

أ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٨٨٦/ ٢٠١٤

I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 902 - 0

ديوى ٢, ٣٩٨

البينيلوبية

أو

أسطورة بينيلوب وأوديسيوس

مارجريت أتوود

ترجمة: عمرو خيرى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٤

• الكتاب: البينيلوبية

(اسطورة بينيلوب وأوديسيوس) The Penelopiad

• تأليف: مارجريت أتوود.

Margaret Atwood

• ترجمة: عمرو خيرى.

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلفة للهيئة المصرية العامة للكتاب.

• جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر والخارج.

• جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلف:

© Margaret Atwood 2005

• الطبعة الأولى ٢٠١٤.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

www.gebo.gov.eg

email:info@gebo.gov.eg

إهداء..

إلى أسرتي.

مقدمة الكاتبة

قصة عودة أوديسيوس إلى مملكته إيثاكا بعد غياب دام عشرين عامًا عرفناها أفضل ما عرفناها من خلال "الأوديسة" لهوميروس. قيل إن أوديسيوس أمضى نصف هذه السنوات وهو يحارب فى حرب طروادة ونصفها الآخر متجولاً فى أنحاء بحر إيجة، محاولاً العودة إلى دياره، متحملاً مصاعب ومشاق، بين غزوات وعمليات هروب من الوحوش، ونوم مع الربات. صادفت شخصية "أوديسيوس المراوغ/الفهلوى" الكثير من التعليق والشروح: إذ يشير إليه البعض بأنه كذاب مُقنع فى كذبه وفنان فى التنكر.. رجل يعيش ويرتزق بذكائه، يضع الخطط وينصب الخدع، وماهر أكثر مما يجب فى بعض الأحيان. مساعدته من الآلهة هى الربة أثينا، الربة المعجبة بأوديسيوس لقدرته على الابتكار وحيلته الواسعة.

فى الأوديسة، نرى بينيلوب -ابنة إيكاريوس ملك إسبرطة وابنة عم هيلين الجميلة -على هيئة زوجة مخلصة نموذجية، امرأة معروفة بذكائها وإخلاصها. بالإضافة إلى عويلها ودعائها وصلاتها لأجل عودة أوديسيوس، فتخدع بكل مهارة الكثير من الخُطاب الذين

يحومون حول قصرها، يلتهمون ضياع أوديسيوس وثروته فى محاولة لإجبارها على الزواج من أحدهم. لا تغرر بهم بينيلوب فحسب بالوعود الكاذبة، بل هى أيضًا تلجأ لغزل كفن تفك خيوطه ليلاً، فتؤخر من قرار الزواج المفترض به أن تتخذه بعد إتمام الكفن. ينصبّ جزء من "الأوديسة" (الهوميرية) على مشاكلها مع ابنها المراهق، تليماخوس، المهموم إلى حد بعيد بتأكيد قدراته لنفسه وللجميع أمام الخُطاب الخطرين، وأمام أمه أيضًا. ينتهى الكتاب المذكور بذبح أوديسيوس وتليماخوس للخطاب، وشنق اثنتى عشرة خادمة كن ينمن مع الخُطاب، وعودة أوديسيوس إلى بينيلوب.

إلا أن "الأوديسة" كما رواها هوميروس ليست النسخة الوحيدة من هذه الحكاية. الأساطير بطبيعتها شفاهية، ومحلية.. قد تُروى الأسطورة بشكل فى مكان، وبشكل مختلف تمامًا فى مكان آخر. لقد اعتمدت على مصادر أخرى فى روايتى هذه بالإضافة إلى "الأوديسة"، لا سيما فيما يتعلق بنسب بينيلوب وأبويها، وحياتها قبل الزواج ثم زواجها، والشائعات الفضائحية التى كانت تحوم حولها.

اخترت أن أدع بينيلوب تروى القصة، ومعها الخادمات الاثنتى عشرة. الخادمات منتظمات فى جوقة تغنى وتنشد، ويركز أداؤهن على إجابة سؤالين يفرضان نفسيهما بعد الانتهاء من قراءة "الأوديسة": ما الذى أدى إلى شنق الخادمات؟ وماذا فعلت بينيلوب حقًا؟ وماذا كانت مقاصدها ودوافعها ونواياها؟ قصتها كما وردت فى "الأوديسة" هشة ضعيفة لا تروى الظمأ، فهناك الكثير من مواطن عدم الاتساق والثغرات فى نسيج الحكاية. لكم طاردتنى الأسئلة الكثيرة عن الخادمات المشنوقات، وفى "البينيلوبية"، تنشغل بينيلوب بهذه الأسئلة نفسها.

مارجريت أتوود

ـ ١ ـ

فن بسيط

هـأنذا قد مُتّ فـأصبحت أعرف كل شيء. تمنيت أن تكون هذه المقولة صحيحة، لكن مثل الكثير من الأمانى، لم تتحقق. لا أعرف إلا حقائق جزئية قليلة لم أكن أعرفها من قبل. وغنى عن القول أن الموت ثمن باهظ للغاية لإشباع الفضول.

منذ أصبحت ميتة.. منذ أصبحت على هذه الحالة من انعدام العظام وانعدام الشفتين وانعدام الثديين، عرفت بعض الأمور وكنت أفضل ألا أعرفها، كالحال عندما يتنصت المرء على النوافذ أو عندما يفتح رسائل الآخرين. أتحسب نفسك راغبًا فى قراءة الأفكار والخواطر؟ فكر جيدًا.

هنا فى الأسفل يصل الناس ومعهم أكياس، كتلك الأكياس التى تنتفخ بالهواء، لكن كل كيس هنا ممتلئ بالكلمات، كلمات قلتها وكلمات سمعتها وكلمات قالها الغير عنك. بعض الأكياس صغير

للغاية، وبعضها كبير، أما كيسى فكان معتدل الحجم، وإن كانت كلماته كثيرة فيه تخص زوجى الشهير. حولنى إلى حمقاء على حد قول الجنرال، كان هذا تخصصه: أن يحوّل الناس إلى حمقى. وكان يُفلت بلا عقاب من كل ما يصنعه، وهو من تخصصاته الأخرى: الإفلات.

كان دائمًا مقنعًا. الكثيرون يرون أن روايته للأحداث هى الرواية الصحيحة، زائد أو ناقص بعض عمليات القتل، أو بعض النساء المغريات، أو بعض الوحوش وحيدة الأعين. حتى أنا كنت أصدقه، من الحين للآخر. كنت أعرف أنه مخادع وكذّاب، لكن لم أتصور أنه سيمارس خدعه ويجرب كذبه علىّ أنا. ألم أكن مخلصة؟ ألم أنتظر وأنتظر وأنتظر رغم الإغراءات - التى بلغت حد الإلزام - للكف عن الانتظار؟ ثم ماذا أصبحت بعد أن كسبت الرواية الرسمية المصداقية؟ أسطورة عن التهذيب. عصا تُستخدم لضرب النساء الأخريات. لم لا يكنّ مهذبات ومحل ثقة ويتقبلن المعاناة بصدر رحب مثلى؟ هذه هى الفكرة التى ألصقت بهيرا، المغنيات وغازلات الخيوط. لكم أود أن أصرخ فى أذنك: لا تحدثنى حذوى.. نعم، أذنك أنت! لكن عندما أحاول الصراخ يخرج صوتى كنعيق البومة.

بالطبع كنت أحس بسقطاته ودهائه ومكره.. كنت أشعر بـ.. ما هى الكلمة المناسبة؟ نعم.. انعدام تام للضمير عنده، لكننى تظاهرت بالعمى، التزمت الصمت. وعندما أفتح فمى، أغنى له بالديح. لم أكن متناقضة. لم أسأل أسئلة مزعجة، ولم أحفر عميقًا وراءه. كنت أرغب فى النهايات السعيدة فى تلك الأيام، وأقصر طريق إلى النهايات السعيدة هى ترك الأبواب الموصدة كما هى، والنوم أثناء الشدائد.

لكن بعد أن انتهت الأحداث الرئيسية وأصبحت الأمور أقل "أسطورية"، أدركت كم ضحك علىّ الناس من وراء ظهرى، كم راحوا يتضاحكون علىَّ ويتمازحون، يطلقون النكات البريئة والقذرة، وكيف حولونى إلى قصة، إلى قصص، ليست من النوع الذى أحب أن أسمعه عن نفسى. ماذا بوسع المرأة فى مواجهة النميمة الفضائحية التى تدور فى أرجاء العالم؟ إذا دافعت عن نفسها سيبدو عليها الذنب. وهكذا رحت أنتظر وأنتظر.

والآن، بعد أن هدأ الناس وفترت حماستهم، حان دورى كى أحكى حكاية. أنا مدينة بهذا لنفسى. ولقد هيأت نفسى لها.. حكى الحكايات فن بسيط، تحبه العجائز والمتسولون والمغنون العميان والخادمات والأطفال.. كل من ينبسط أمامه الزمن والفراغ. ذات مرة، كان الناس ليضحكوا لو حاولت لعب دور الحكاءة الشاعرة، فليس هناك ما هو أكثر زيفًا من امرأة أرستقراطية تعبث بالفنون، لكن من يعبأ بالرأى العام الآن، أو رأى الناس هنا فى الأسفل، رأى الأطياف، الأصداء؟ سأبدأ إذن أغزل لنفسى خيطًا.

المشكلة.. أنه لا فم لى أروى من خلاله وأتكلم. لا يمكن أن يفهمنى أحد، ليس فى عالمكم، عالم الأجساد والألسنة والأصابع، وليس لى مستمعون أغلب الوقت، ليس على جانبكم من النهر. من تمكن منكم من سماع الهمسات القليلة، أو صرخة مكتومة بين الفينة والأخرى، سيظن كلماتى نسمات الهواء تمر على العشب الجاف، أو خفقات أجنحة الوطاويط ساعة الغروب، أو كوابيس.

لكن لطالما كنت ذات عزم قوى، صبورة، كما كانوا يقولون عنى، أحب إذا بدأت أمرًا أن أتمّه إلى النهاية.

ـ ٢ ـ

الجوقة

أنشودة نطّ الحبل

نحن الخادمات

من قتلتهنّ

ومن خذلتهنّ

رقصنا في الهواء

ارتعشت أقدامنا العارية

ولم نرَ أن ذلك حسنًا

مع كل ربّة وملكة وكلبة

من هناك إلى هنا
نمت وانتشيت

فعلنا الأقل بكثير
مما فعلت أنت
وحكمت علينا ظلمًا

لك أنت الرمح
لك أنت الكلمة
تحت طوعك

مسحنا دماء عشاقنا
المقتولين
من على الأرض ومن فوق المقاعد

من درجات السلم، من الأبواب
سجدنا في الماء
وأنت تنظر إلينا

تنظر إلى أقدامنا الحافية

لم يكن هذا حسنًا
أن تتغذى على خوفنا

انتشيت
ورفعت يدك فأمرت
ونظرت إلينا في سقوطنا

رقصنا في الهواء
نحن من خذلتهن
من قتلتهن.

ـ ٣ ـ

طفولتى

من أين أبدأ؟ هناك بداية من اثنتين: من البداية أو ليس من البداية. البداية الحقيقية هى بداية العالم، من بعدها يؤدى الأمر إلى الآخر، لكن بما أن الآراء تختلف حول هذا الموضوع، فسوف أبدأ بمولدى.

أبى هو الملك إيكاريوس ملك إسبرطة، وأمى من حوريات الماء. على أيامنا كانت بنات حوريات الماء «العشرة بقرش»، تجدهن فى كل مكان، ورغم ذلك فلا ضرر من أن أكون نصف ربّة. أو أن الضرر ليس فوريًا.

عندما كنت صغيرة أمر أبى برميى فى البحر. لم أعرف تحديدًا لماذا، طيلة حياتى، لكن الآن أشتبه فى أن عرّافة ما قالت له إننى سأغزل له كفنه. ربما ظن أنه إذا قتلنى أولاً فلن يُغزل كفنه مطلقًا وسيعيش مخلدًا. أرى منطقه فى هذا القرار. فى تلك الحالة إذن،

لو صحت، فقراره بإغراقى مبعثه رغبة مفهومة فى حماية نفسه. لكن لا بد أنه أخطأ السمع، أو أن العرافة نفسها أخطأت السمع - فلكم يغمغم الآلهة - لأن ليس كفنه هو المقصود، بل كان كفن حماى. لو كانت تلك هى النبوءة فأشهد أنها صحيحة، والحق أن غزلى لذاك الكفن تحديدًا كان مفيدًا أيما فائدة لى فى حياتى.

فى زمنكم هذا أصبح تعليم الفتيات الصنائع والفنون العملية فى غياهب الماضى، أفهم هذا، لكن لحسن الطالع لم يكن الوضع كذلك على أيامى. من المفيد بشكل عام أن يُتاح للمرء ما يفعله بيديه. هكذا إذا أدلى أحدهم بتعليق غير مهذب يمكن أن تتظاهر بعدم سماعه، ومن ثم لا تضطر للإجابة.

لكن ربما فكرة العرافة ونبوءة غزل الكفن هذه لا سند لها ولا أساس. ربما اخترعتها لنفسى كى أريح نفسى. يا لكمية الهمس والنميمة هنا فى غياهب الظلام، فى مروج العتمة، حتى إننى أحيانًا ما أجد الصعوبة فى تمييز ما يُقال بين الآخرين، أو حتى ما يرد داخل رأسى. وأنا أستخدم هنا كلمة رأس على سبيل المجاز. فقد استغنينا عن مسألة الرؤوس هذه.

المهم.. ألقوا بى فى البحر. هل أذكر الأمواج تحاصرنى؟ هل أذكر آخر أنفاسى تغادر ضلوعى وصوت الأجراس الذى يُقال إن الغرقى يسمعونه؟ إطلاقًا. لكن هناك من حكى لى الحكاية. هناك دائماً خادمة أو عبدة أو مربية عجوز مستعدة لإبهاج طفلة بأمور بشعة فعلها بها الأبوان عندما كانت صغيرة لا تذكر. سماع هذه الحكاية المحبطة لم يحسن علاقتى بوالدى. بسبب هذه الحكاية - أو بسبب علمى بها - أصبحت أتعامل بتحفظ مع الناس ولا أثق فى صدق نواياهم.

كان من الغباء أن يحاول إيكاريوس إغراق ابنة حورية الماء. الماء يخصنا ومنه ولدنا. رغم أننا لسنا سباحات ماهرات مثل أمهاتنا، فلنا طريقة نمتاز بها فى الطفو على سطح الماء، ولنا صلات قوية بالأسماك وطيور البحر. جاء سرب من البط الموسوم بخطوط أرجوانية فأنقذنى ورمانى على الشاطئ. بعد كرامة كهذه الكرامة، ماذا بوسع الأب أن يفعل؟ أعادنى وغيّر اسمى.. أصبح "بطّة" هو لقبى. لا شك أنه أحس بالذنب لما فعل.. أصبح - إن جاز التعبير - قريبًا إلىّ، كثير الود.

وجدت صعوبة فى مبادلته الود، ولك أن تتخيل السبب. تخيل مثلاً أننى سائرة ويدى فى يد أبى المحب العطوف على طرف جرف صخرى يطل على البحر أو ضفة نهر، فتخطر له فكرة أن يقرر فجأة دفعى إلى حتفى. وكان الحفاظ على واجهة هادئة فى تعاملى معه فى ظل هذه الظروف أمرًا صعبًا. بعد مناورات كثيرة أعود إلى حجرتى وأغرق فى فيضانات من الدموع. (الإفراط فى البكاء من خصال بنات حوريات الماء. أمضيت ربع حياتى الأرضية على الأقل أبكى بحرقة. لحسن الحظ على أيامى كانت الثياب تشمل ما يستر الوجه. وكانت ذات ضرورة عملية، فى إخفاء العيون الحمراء المحتقنة).

أمى، ككل حوريات الماء، كانت جميلة، ولكن باردة الإحساس. كانت ذات شعر متماوج وغمازات، وضحكة رقراقة. كانت مراوغة. كم حاولت وأنا صغيرة أن ألفها بذراعىّ، لكنها كانت تحب التملص. يعنّ لى تخيل أنها من استدعت ذلك السرب من البط، لكن الأرجح أنها لم تفعل.. كانت تفضل السباحة فى النهر على رعاية الأطفال

الصغار، وكثيرًا ما غبت عن بالها. لو لم يكن أبى قد رمانى فى البحر؛ فربما كانت لترمينى هى فى نوبة من نوبات الشرود أو الامتعاض. هى سيئة التركيز وتتقلب مشاعرها بسرعة.

مما رويته لك أن تتخيل أننى كنت طفلة تعلمت مبكرًا فضائل - إن كانت فضائل - الاعتماد على الذات. كنت أعرف أننى لا بد أن أرعى نفسى فى هذا العالم؛ إذ لا يمكننى التعويل على رعاية أسرتى.

ـ ٤ ـ

الجوقة

بكائية طفولية، مرثاة الخادمات

نحن أيضًا كنا أطفالاً. نحن أيضًا ولدنا للآباء الخطأ، الآباء الفقراء، الآباء العبيد، الآباء الفلاحين، والآباء شغيلة الأرض، آباء باعونا وآباء سُرقنا منهم. هؤلاء الآباء لم يكونوا أربابًا، ولم يكونوا أنصاف أرباب، ولم يكونوا حوريات بحر أو حوريات ماء. كُتب علينا العمل فى القصر، فى سن الطفولة.. نشقى من الفجر إلى مغيب الشمس، فى سن الطفولة. لو بكينا لا يجفف أحد دمعنا. إذا نمنا، يركلوننا لنصحوا، قيل لنا أن لا أمهات لنا، قيل لنا أن لا آباء لنا. قيل لنا إننا كسالى. قيل لنا إننا قذرات. القذارة همنا والقذارة عملنا والقذارة تخصصنا والقذارة خطؤنا. كنا الفتيات القذرات. إذا رغب مُلاكنا أو أبناء ملاكنا أو نبلاء زائرون أو أبناء نبلاء زائرون فى النوم معنا، ليس لنا أن نرفض. ولا فائدة من البكاء، ولا فائدة

من التعبير عن الألم. ولو كنا طفلات جميلات تصبح الحياة أسوأ. نطحن الطحين لحفلات العرس الضخمة، ثم نأكل البقايا والفتات، ولن تُعقد لنا مطلقًا مآدب عرس، ولن يتم تبادل هدايا فخمة على شرفنا.. أجسادنا ثمنها بخس. لكن أردنا الغناء والرقص أيضًا، أردنا السعادة أيضًا. مع الكبر فى السن أصبحنا ماكرات دواهى، تمكّنا من فن الإغراء، نهز أردافنا وننتظر فى المخابئ، ونغمز ونرفع حواجبنا، حتى ونحن فى سن الطفولة، كنا نقابل الأولاد وراء حظيرة الخنازير.. أولاد نبلاء وأولاد مثلنا. نتدحرج على القش وفى الطين وفى الروث وعلى أسرّة مفروشة بالصوف الناعم نجهّزها ونرتبها لأسيادنا. نشرب النبيذ المتخلف فى كؤوس النبيذ. نبصق فى أطباق الطعام المقدمة للسادة. وبين القاعات اللامعة والمطابخ المظلمة نملأ أفواهنا بقطع اللحم. نضحك معًا فى حجراتنا، فى لياليا. نختطف ما نقدر على اختطافه.

ـ ٥ ـ

أسفوديل

الدنيا هنا ظلام، كما قال الكثيرون. "الموت الأسود"، كما كانوا يقولون.. "قاعات هيدز الكابية"، وهلم جرًّا. المهم، الدنيا هنا ظلام، لكن للظلام مزايا، على سبيل المثال: لو رأيت شخصًا لا تود الكلام معه، تتظاهر بأنك لم تره.

هناك طبعًا مروج الأسفوديل. يمكنك السير فيها إذا شئت. هنا الظلام أقل، وهناك قدر معقول من الرقص الممل، وإن كانت هذه المنطقة تبدو أفضل من حالها الفعلى.. "مروج الأسفوديل"، يا للاسم الشاعرى. لكن تأمل: أسفوديل، أسفوديل، أسفوديل.. زهور بيضاء كثيرة، لكن المرء يمل من هذا الكلام بعد فترة. كان الأفضل أن تكون الحال منوّعة.. باقة من الألوان، بعض الدروب الملتوية فى المرج والمقاعد الحجرية أو النافورات. أنا أفضل المتاهة. كم أود أن أرى بعض الورود الزرقاء على الأقل، أهذا كثير؟ لكن الربيع لا يأتى هنا إطلاقًا، ولا أى فصول أخرى. لك أن تتساءل من صمم هذا المكان؟

هل ذكرت أن لا شيء يؤكل هنا غير ورد الأسفوديل؟

لكن لن أشتكى.

المغارات الأكثر ظلامًا مسلية أكثر، تسمع فيها قدراً أكبر من الكلام، هذا لو وجدت نصابًا صغيرًا من هذا الصنف أو ذاك.. نشّال مثلاً، أو سمسار بورصة، أو قوّاد تافه. مثل الكثير من الفتيات المهذبات المؤدبات، كنت أنجذب دائمًا إلى الرجال من هذا النوع.

رغم ذلك فأنا لا أرتاد المستويات السفلى كثيرًا. فيها ترى الأشرار يُعاقبون، أولئك الذين لم يُعاقبوا بما يكفى فى حياتهم. من الصعب احتمال الصراخ. لكن التعذيب هنا تعذيب نفسى، بما أنه لم تعد لنا أجساد. من أساليب الأرباب التى يحبونها عقد المآدب، موائد ضخمة من اللحم وأكوام الخبز والعنب، ثم تتلاشى فجأة. ويحبون أيضًا إجبار الناس على حمل الأحجار الضخمة ليصعدوا بها تلالاً منحدرة. أحيانًا يعن لى النزول إلى هناك، فقد يساعد ذلك فى تذكر حالة الجوع الحقيقى، وكيف كان الإجهاد الحقيقى.

من الحين للآخر عندما ينقشع الضباب نرى لمحة من عالم الأحياء.. مثلما تمسح بيدك الزجاج القذر، فتطل من مساحة صغيرة على الخارج. أحياناً يتلاشى الحاجز بين العالمين ونتمكن من الخروج فى نزهة.. وقتها يشتعل حماسنا وتكثر الجلبة والصراخ.

هذه النزهات يمكن أن تتم بعدة طرق. فيما سبق، كان بإمكان أى أحد يريد مشورتنا أن يذبح خروفًا أو بقرة أو خنزيرًا ويدع الدم يتدفق فى خندق فى الأرض. نشم الدم ونصطف فى طابور أمام ذلك المكان، كالذباب حول الجيفة. نجتمع بالآلاف وكلنا حماس،

كمحتويات سلة قمامة عملاقة اختطفها إعصار، بينما يقف بطل ما معتز بنفسه، يمنعنا عنه بسيفه، إلى أن يظهر الشخص الذى يريد مشورته، ثم تظهر بعض النبوءات الغامضة.. تعلمنا أن نبقى النبوءات غامضة. لماذا نقول كل شىء؟ المطلوب أن يستمر الطلب علينا، مع ذبح خراف وأبقار وخنازير جديدة، وما إلى ذلك.

ما إن يتحصل البطل على عدد الكلمات الصحيح، حتى يُسمح لنا جميعًا بالشرب من الخندق، وليس عندى الكثير من المديح لآداب الطعام فى هذه المناسبات. هناك الكثير من التدافع، والكثير من أصوات الشرب، والكثير من الذقون الدامية. إلا أنه إحساس رائع، إحساس تدفق الدماء فى عروقنا التى لم يعد لها وجود، ولو للحظة.

أحيانًا نقدر على الظهور فى الأحلام، لكن هذه المسألة ليست مرضية أو مشبعة كموضوع النبوءات، ثم هناك من يعلقون على الجانب الآخر من النهر لأنهم لم يُدفنوا بالشكل الملائم. يجولون فى الأرض فى حالة من التعاسة التامة، لا هم هنا ولا هم هناك، وهم قادرون على إثارة الكثير من المشاكل.

وبعد مئات، وربما آلاف السنين ـ من الصعب حساب الزمن هنا؛ لأنه غير موجود بالنسبة لنا ـ تغيرت العادات. لم يعد الأحياء يذهبون إلى العالم السفلى، وظهر بدلاً من مؤسستنا هذه مؤسسة أخرى مرموقة أحدث منّا بكثير، قوامها حفر من نار وعويل وبكاء هستيرى، ودود يأكل اللحم عن العظم، وشياطين يحملون الشوكة، ومؤثرات خاصة عظيمة أخرى.

لكن ما زال من الحين للآخر يستدعينا هذا الساحر أو ذاك الحاوى، وهم رجال عقدوا صفقات مع القوى السفلية، ثم هناك

الأقل أهمية، محضرو الأرواح والراغبون فى العبث، ومن على شاكلتهم. مسألة مهينة أن تضطر للتجسد فى دائرة من الطباشير أو فى صالون فاخر لأن هناك من يرغب فى التسلية معك، لكن سمح لنا هذا الموضوع بالاطلاع على ما يحدث فى عالم الأحياء. تحمست كثيرًا لاختراع المصباح الكهربائى، على سبيل المثال، وتحمست لنظريات تحويل المادة إلى طاقة التى ظهرت فى القرن العشرين. ومؤخرًا تمكن بعضنا من اختراق عالم الإنترنت الأثيرى الذى يلف العالم، وراحوا يتنقلون بهذه الطريقة، ينظرون إلى العالم من وراء الشاشات المسطحة المضيئة التى أصبحت مقامات منزلية. ربما هكذا كان بإمكان الأرباب المجىء والذهاب كما شاءوا فى زمننا.. لا بد أنهم كانوا يستخدمون اختراعًا كهذا.

لم يستدعنى سحرة كثيرون. أنا مشهورة، نعم - اسأل أى أحد - لكن لسبب ما لا يريدون رؤيتى، بينما ابنة عمى هيلين الطلب عليها كثير. ليس هذا عدلاً.. فأنا غير معروفة بأى أمر مشين، خاصة الأمور ذات الطبيعة الجنسية، بينما هى والسمعة السيئة وجهان لعملة واحدة. كانت جميلة جدًا بالطبع. قيل إنها خرجت من بيضة، فهى ابنة زيوس الذى اغتصب أمها بعد أن ظهر فى هيئة بجعة. كم كانت فخورة بهذا الموضوع. أتساءل كم بيننا صدقوا موضوع اغتصاب ذكر البجعة هذا؟ شهد ذلك الزمان حكايات كثيرة، إذ يبدو أن الأرباب كانوا غير قادرين على إبعاد أيديهم أو مخالبهم أو مناقيرهم عن النساء.. ولكم كثرت حكايات اغتصابهم لهذه المرأة أو تلك.

المهم، السحرة يصرون على رؤية هيلين، وهى مستعدة للظهور لهم، كأنها عادت للأيام الخوالى، عندما كان الرجال يحدقون فيها

غير قادرين على إبعاد أعينهم عنها. تحب الظهور فى زى طروادة، وفى رأيى هو ثوب مبالغ فيه. عندما تلتفت تلك الالتفاتة البطيئة، ثم تخفض رأسها وتنظر إلى وجه من استدعاها وحضّرها، وتمنحه ابتسامة من ابتساماتها المعروفة؛ فيخضع لها تمامًا، أو تتخذ هيئتها كما ظهرت أمام زوجها الغاضب منلاوس، وقت أن كانت طروادة تحترق وكان على وشك أن يغمد سيفه المنتقم فيها. كل ما فعلته وقتها أن عرّت أحد ثدييها فخر ساجدًا على ركبتيه وراح لعابه يسيل وهو يرجوها أن تقبل عودته إليها.

بالنسبة لى.. قال لى الناس إننى جميلة، وكانوا مضطرين لهذا إذ كنت أميرة، وبعد ذلك بقليل أصبحت ملكة، لكن الحقيقة أننى وإن لم أكن مشوهة الخلق أو قبيحة، فلم أكن ذات أى جمال خاص. كنت ماهرة، بحساب زمننا، ماهرة للغاية. يبدو أننى معروفة بالمهارة، ثم إننى معروفة أيضًا بقدرتى على غزل الخيوط وإخلاصى لزوجى، وتكتمى وحذرى أيضاً.

لو كنت ساحرًا متورطًا فى فنون الظلام، وتخاطر بروحك، فهل ستستحضر زوجة عادية الجمال، لكن ماهرة، كانت تجيد الغزل ولم ترتكب أى فضائح، وتختارها على امرأة أثارت جنون مئات الرجال بعد أن صرعهم الشبق وتسببت فى احتراق مدينة عظيمة؟

ولا أنا.

* * *

لم تُعاقب هيلين أبدًا، ولا أقل العقاب. لم لا؟ أود أن أعرف. هناك آخرون خنقتهم ثعابين البحر وغرقوا فى العواصف وتحولوا إلى عناكب وأطلقت عليهم السهام فأردتهم صرعى على جرائم أقل

وأصغر. أكلوا مثلاً بقرة ما كان لهم أن يأكلوها، أو اختالوا فى الأرض.. أشياء من هذا النوع. ألا تستحق هيلين علقة صغيرة بالسياط مثلاً على الأقل، بعد كل ما تسببت فيه من ضرر ومعاناة لعدد لا حصر له من الناس؟ لكن لم يحدث.

عموماً لا يهمنى.

ولم يهمنى.

عندى أشياء أخرى فى حياتى تشغلنى.

وهو ما يعود بى إلى موضوع زواجى.

ـ ٦ ـ

زواجى

كان زواجى زواجًا مرتبًا. هكذا كان الأمر يتم فى زمننا.. أينما وجد الزواج؛ وُجدت الترتيبات والحسابات. لا أعنى ترتيبات من نوع ثوب العروس والزهور والمآدب والموسيقى، وإن كان عندنا هذه الترتيبات أيضًا. والكل يحظى بهذه الترتيبات، حتى فى الزمن الحالى. الترتيبات التى أعنيها ترتيبات ملتوية أكثر من هذا النوع.

بموجب التقاليد القديمة، كان لا يتزوج إلا الأشخاص المهمون، لأن الأشخاص المهمين هم أصحاب المواريث. البقية يكتفون بالمضاجعة على كل شكل ولون، اغتصاب أو إغراء أو علاقات حب أو مضاجعة ليلة واحدة، مع أرباب يقولون إنهم رعاة غنم، أو رعاة غنم يقولون إنهم أرباب. من الحين للآخر تتورط ربة فى هذا الأمر أيضاً، فتنجذب إلى اللحم البشرى وكأنها ملكة تُمثل دور الخادمة، لكن لا يحظى الرجل فى هذه الحالة إلا بعمر مقصوف وميتة بشعة.

الأخلاق وانعدام الأخلاق لا يمتزجان.. النار والطين، يربحان دائمًا.

لم يحجم الأرباب مطلقاً عن إطلاق الفوضى والألم. فى الواقع كانوا يستمتعون بذلك. أن يشاهدوا رجلاً فانياً أو امرأة فانية، تحترق عيونهم فى المآقى بسبب جرعة زائدة من الجنس الربانى، فيهتزون طرباً وضحكاً. هناك جانب طفولى فى هؤلاء الأرباب، جانب بشع. لى أن أقول هذا الآن بعد أن لم يعد لى جسد، فأنا متجاوزة لهذا النوع من الآلام، والأرباب لا يسمعون على أية حال، على قدر علمى فقد دخلوا فى سبات عميق. فى عالمكم لم يعد الأرباب يزورون الناس كما اعتاد الناس فى زمانى، ما لم تكن مدمنًا على صنف أو آخر من المخدرات.

أين كنت؟ نعم.. الزواج. كان الغرض منه إنجاب الأطفال ولم يكن الأطفال دمى أو حيوانات أليفة. كان الأطفال يُستخدمون فى نقل الأشياء. هذه الأشياء قد تكون ممالك، أو هدايا عرس غالية، أو حكايات، أو أضغانًا وأحقادًا، أو ثأرًا. من خلال الأطفال تُعقد التحالفات، من خلالهم يصبح الخطأ صوابًا. أن يكون لك طفل فهذا يعنى أن تكون لك سلطة تطلقها على هذا العالم.

لو كان لك عدو فالأفضل أن تقتل أبناءه، حتى لو كان هؤلاء الأبناء رُضعًا، وإلا فسوف يكبرون ويصطادونك. إذا لم تتمكن من حمل نفسك على ذبحهم؛ فمن الممكن مثلاً أن تغير من هيئتهم وتنفيهم، أو تبيعهم عبيدًا، لكن ماداموا أحياءً فهناك خطر عليك.

إذا كانت لك بنات وليس صبية، فعليك أن تدفع بهن إلى التناسل بأسرع ما يمكن؛ ليصبح لك أحفاد. كلما كثر عدد حملة السيوف

ورماة الحراب داخل أسرتك فهذا أفضل، لأن كل الرجال ذوى الشأن حولك ينتظرون فرصة الإغارة على هذا الملك أو ذاك النبيل، ليأخذوا أى شىء تصل إليه أيديهم، بما فى ذلك البشر. ضعف صاحب السلطة معناه فرصة لصاحب سلطة آخر، من ثم فكل ملك أو نبيل يحتاج لكل مساعدة تصل إليها يده.

من ثم، فمن تحصيل الحاصل أن أقول إن زواجى رُتب لى ما إن حان وقتى.

* * *

فى بلاط الملك إيكاريوس - أبى - ما زالوا يراعون التقاليد القديمة، القاضية بإقامة مسابقات لتحديد الفائز بالمرأة ذات الحسب والنسب. من يربح المسابقة يربح المرأة والعرس، ثم يُنتظر منه أن يبقى فى قصر والد العروس ويسهم بنصيبه من الأطفال الذكور. يحصل على ثروة عن طريق الزواج، كؤوس الذهب وأطباق الفضة والجياد والثياب والأسلحة وكل هذه التفاهات التى كانوا يقدرونها كثيرًا عندما كنت حية. من المتوقع أن تسلّم أسرته الكثير من هذه التفاهات أيضًا.

أقول تفاهات بملء فمى لأننى أعرف إلى أين انتهى المطاف بأغلب هذه الأشياء. دُفنت فى الأرض أو غرقت فى قاع البحر، أو تحطمت أو أذيبت. بعضها وصل إلى قصور مشيدة، العجيب أن لا ملوك ولا ملكات فيها. يصطف فى هذه القصور أعداد لا حصر لها من الناس فى ثياب لا ذوق فيها، يحدقون فى الأقداح الذهبية والأطباق الفضية، التى لم تعد تستخدم. ثم يذهبون إلى ما يشبه المتجر داخل القصر ويشترون صورًا لهذه الأشياء، أو نسخًا مقلدة

منها ليست من الذهب الحقيقى أو الفضة الحقيقية؛ لهذا أقول عليها تفاهات.

بموجب التقاليد القديمة، تبقى كومة غنائم العرس الهائلة عند أسرة العروس، فى قصر أسرتها. ربما لهذا انجذب لى أبى كثيرًا بعد أن فشل فى إغراقى فى البحر. فحيث أوجد يوجد الكنز.

لماذا رمانى فى البحر؟ ما زال هذا السؤال يؤرقنى. رغم أننى لست مقتنعة تمامًا بتفسير غزل الكفن، فلم أتمكن أبدًا من العثور على الإجابة الصحيحة، حتى هنا فى العالم السفلى. فى كل مرة أرى أبى عن بعد، يخوض فى مروج الأسفوديل، أحاول اللحاق به فيبتعد وكأنه لا يريد أن يواجهنى.

أفكر أحيانًا أننى ربما كنت تضحية ما لرب البحر، المعروف بتعطشه لأرواح البشر، ثم أنقذتنى البطات، وهو أمر ليس من تدبير أبى. أعتقد أن أبى تمكن وقتها من القول بأنه أوفى بما عليه فى الصفقة، إن كانت صفقة، وأنه لم يغش، وأن رب البحر أخفق فى جرّى لأسفل والتهامى، وهذا لسوء حظه.

كلما فكرت فى هذه الرواية للأحداث، يزيد إعجابى بها؛ فهى منطقية.

تخيلونى إذن، ماهرة لكن لست فتاة فى سن الزواج ولست جميلة بشكل مبالغ فيه، لنقل فى سن 15عاماً. لنفترض أننى أنظر من نافذة حجرتى، وكانت فى الطابق الثانى من القصر، أطل على الفناء حيث يجتمع المتسابقون.. كلهم من الشباب الطامح إلى التنافس على يدى.

لا أنظر من النافذة بشكل مباشر طبعاً. لا أسند مرفقيّ على إطار النافذة لأطل على الناس كأننى خادمة صفيقة. لا، أختلس النظرات من بعيد، من وراء حجابى ومن وراء الستار. لن يفيدنى أن يرى هؤلاء الشبان وجهى بلا حُجب. بذلت نساء القصر قصارى جهدهن فى تجميلى، وأشعر الشعراء الأغانى فى مديحى "بهية بهاء أفروديت" وكل هذا الكلام المألوف.. لكن أشعر بالخجل والتعاسة. الشباب يضحكون ويمزحون، يبدو أن بينهم مودة وألفة، ولا يرفعون عيونهم لأعلى.

أعرف أننى لست بغيتهم، ليست بينيلوب البطة. ما يهمهم هو ما سيحصلون عليه معها.. صلات ملكية وكومة قمامة لامعة. لن يقتل رجل نفسه مطلقًا فى حبى.

ولم يفعل أى رجل هذا. طبعًا أنا لا أريد أن ألهم أحداً بانتحار على هذه الشاكلة. لم أكن آكلة رجال، ولم أكن ندّاهة بحر، ولست مثل ابنة عمى هيلين التى كانت تغزو قلوب الرجال فقط كى تؤكد قدرتها على هذا. ما إن يسيل لعاب الرجل، ولا يستغرق هذا وقتًا طويلاً؛ حتى تبتعد عنه دون أن تمنحه نظرة أخيرة، ناثرة ضحكاتها المستهترة هنا وهناك، وكأنها رأت مهرج القصر يقف على رأسه.

كنت فتاة طيبة، أطيب من هيلين، أو هكذا تخيلت. كنت أعرف أن علىّ أن أقدم بديلاً للجمال. كنت ماهرة، قال الجميع عنى هذا.. فى الواقع قالوا هذا كثيرًا لدرجة أن هذا الوصف أحبطنى، لكن المهارة خصلة يحب الرجل أن تكون فى زوجته مادامت هى على مسافة منه. عن قرب، يفضل الطيبة دائمًا، إن لم يكن هناك ما هو أكثر إغراء من ذلك.

الزوج الأرجح لى هو بالطبع أحد أبناء الملوك فى سن الشباب، لديه ضياع كبيرة، أحد أبناء الملك نسطور ربما، فهذه صلات تُرضى الملك إيكاريوس. من وراء حجابى، تفرست الشبان الحائمين تحتى، أحاول التعرف فى كل منهم على من يكون ـ وهو شىء لا تبعات عملية له بالطبع بالنسبة لى، بما أننى لست أنا من ستختار زوجى ـ أحاول معرفة من أُفضِّل بينهم.

كانت معى خادمتان، فهن لا يتركننى أبدًا وحدى، فأنا مصدر خطر حتى أتزوج بالسلامة، لأن.. من يعرف ما قد يحاول مُغامر من المغامرين فعله ليغرينى أو يأخذنى ويهرب؟ الخادمات كُن مصدر معلوماتى. عامرات بنافورات من النميمة.. قادرات على الذهاب والمجىء بحرية فى القصر، يمكنهن دراسة الرجال من كل الزوايا، يمكنهن التنصت على أحاديثهم، يمكنهن الضحك والمزاح معهم قدر ما شئن.. لا أحد يهتم بمن سيحاول أن يصل إلى ما بين سيقانهن.

سألت: "من ذلك الرجل الربعة عريض الصدر؟"

قالت إحدى الخادمات: "هذا أوديسيوس". لم يكن يُعتبر ـ فى نظر الخادمات على الأقل ـ مرشحًا جادًا للفوز بيدى. قصر والده فى إيثاكا، تلك الصخرة العامرة بالماعز، ملابسه ريفية ساذجة، سلوكه سلوك وجهاء القرية، وكان قد أعرب عن بعض الأفكار المعقدة للآخرين، ورأوا أنها غريبة، وإن قالوا إنه ماهر. فى الواقع هو ماهر للغاية. الشبان الآخرون راحوا يسخرون منه: "لا تقامر مع أوديسيوس صديق هيرمس، فلن تربح أبدًا". وكأنهم يقولون إنه نصاب ولص. جده أوتولايكوس معروف بهذه الخصال، وكان معروفًا عنه أنه لم يربح فى حياته أى شىء بإنصاف.

قلت: "أتساءل ما سرعته فى الجرى"؟ فى بعض الممالك، تكون مسابقات الفوز بالعروس مسابقات مصارعة، وفى ممالك أخرى هى سباق عربات الخيول، وعندنا هو سباق للجرى لا أكثر.

قالت إحدى الخادمات فى وقاحة: "ليس بسرعة، بأقدامه القصيرة هذه". كانت ساقا أوديسيوس فعلاً قصيرتين مقارنة بجسده. لا بأس فى مظهره وهو جالس، فلن تلاحظ، لكن وهو واقف تراه ثقيل الجذع عريضه.

قالت خادمة أخرى: "ليس بالسرعة الكافية ليمسكك. ليس لطيفًا أن تستيقظى فى الصباح لتجدى نفسك فى الفراش مع زوجك ومعكما قطيع من بقرات أبوللو". هى مزحة عن هيرمس، الذى كانت سرقته الأولى يوم أن وُلد، هى سرقة قطيع من الماشية. وقالت أخرى: "ليس إن كانت إحدى البقرات ثورًا، أو ربما عنزة"، قالت ثالثة: "كبش ضخم وقوى! أراهن أن بطتنا الصغيرة ستستمتع بالكبش، ستثغو له قريبًا، ماء ماء!" قالت رابعة: "لا أمانع فى واحد من هذا النوع صراحةً. الكبش أفضل من أصابع الأطفال المتوفرة بكثرة هنا". بدأن يضحكن جميعًا، يرفعن أيديهن إلى أفواههن ويهتززن فى طرب.

كنت حائرة، لم أكن أفهم تلك النكات الأكثر خشونة، ليس بعد، فلم أفهم بالضبط علام يضحكن، وإن كنت أفهم أن ضحكهن منّى. لكن لم أجد سبيلاً لإسكاتهن.

* * *

فى تلك اللحظة جاءت ابنة عمى هيلين تتهادى، كبجعة طويلة الرقبة، كما تتخيل نفسها. لها طريقة مميزة فى السير متمايلة،

وكانت تبالغ فيها. ورغم أننى أنا العروس وهذا عرسى، أرادت كل الاهتمام لنفسها. كانت جميلة كالعادة، بل أكثر: هى جميلة لدرجة لا تُطاق. تتزين زينة الكمال. منلاوس، زوجها، كان يضمن لها هذا الأمر دائمًا، وكان غنياً غنى فاحشًا وقادرًا على تحمل التكاليف. أمالت وجهها نحوى، تنظر إلى نظرة فيها نزوة وكأنها تغازلنى. أشك فى أنها كانت تغازل كلبها، مرآتها، مشطها، مصباح سريرها. كانت تتمرن دائمًا.

قالت: "أظن أوديسيوس سيكون نِعم الزوج لبطتنا الصغيرة. فهى تحب الحياة الهادئة، وسوف تحظى بها إذا هو أخذها إلى إيثاكا. يمكنها أن تساعده فى الاعتناء بعنزاته. هى وأوديسيوس فولة وانقسمت نصّين.. لهما نفس السيقان القصيرة". قالت ما قالته فى خفة ولُطف، لكن أقوالها الألمع والأمهر كانت دائماً الأقسى. لماذا يتخيل جميلو المظهر أن كل من فى العالم ليسوا موجودين إلا لتسليتهم؟

تهامست الخادمات. حُطمت أنا. لم أتخيل أن ساقىّ قصيرتان هكذا، وبالطبع لم أتخيل أن هيلين ستلاحظهما، لكن لا يخرج منها الكثير عندما تقيّم جمال وعيوب الآخرين المظهرية. هذا هو ما أوقعها فى باريس فيما بعد، فقد كان أجمل بكثير من منلاوس، سمج المظهر أحمر الشعر. أفضل ما قيل عن منلاوس، بعد أن بدأوا فى نظم فضائله فى الأشعار، هو أن صوته جهورى مرتفع للغاية.

نظرت الخادمات جميعًا إلىّ ليرين ما سأقول. لكن هيلين كانت ماهرة فى إخراس الآخرين، ولم أكن أنا استثناءً من تلك القاعدة.

قالت لى وهى تربت على ذراعى: "لا عليكِ يا ابنة عمى الصغيرة. يقولون إنه ماهر للغاية، وأنت ماهرة للغاية بدورك، كما سمعت. فسوف تفهمين إذن ما يقول. لا يمكننى هذا أبدًا عن نفسى! كنت محظوظة وكان محظوظًا عندما لم يفز بيدى!".

ارتسمت على وجهها تلك النظرة الصفراء التى تظهر على وجه من تُوضع أمامه قطعة سجق غير لذيذة فيرفضها فى إباء. بالطبع كان أوديسيوس من خُطابها، ومثل جميع الرجال على وجه الأرض، كان يسعى بكل قوة لأن يفوز بها. ها هو الآن يتنافس على ما يُعتبر فى أفضل تقدير، جائزة المركز الثانى.

ابتعدت هيلين، وقد لدغت لدغتها. بدأت الخادمات يناقشن قلادتها الرائعة، قرطها المتلألئ، أنفها تام الكمال، تسريحتها الأنيقة، عينيها المضيئتين، طرف ثوبها المتألق المغزول بمهارة. وكأننى لست هنا. وكان يوم عرسى.

كل هذا ضغط على الأعصاب. بدأت أبكى، كما سأبكى كثيرًا فى المستقبل، فأخذونى لأرقد على سريرى.

وهكذا فاتنى السباق نفسه. ربحه أوديسيوس بالطبع. غش كما عرفت فيما بعد. شقيق أبى، عمى، الملك تينداريوس، أبو هيلين - وإن كان البعض قد قالوا إن زيوس هو أبوها الحقيقى - ساعده فى أن يربح. خلط نبيذ المتسابقين الآخرين بمخدر أبطأهم، لكن ليس بالدرجة الكافية ليلاحظوا، وأعطى أوديسيوس ترياقًا له مفعول عكسى. أفهم أن هذا الأمر أصبح فى حُكم العادة، وما زال يُمارس فى عالم الأحياء فى المسابقات الرياضية.

لماذا يساعد عمى تينداريوس زوج المستقبل هكذا؟ لم يكونا صديقين أو حليفين. ماذا سيربح تينداريوس؟ كان عمى لا يساعد

أحدًا ـ صدقونى ـ لمجرد أنه طيب القلب، فهو صنف لم يكن متوفرًا عنده بغزارة.

يُقال إننى كنت ثمن خدمات أوديسيوس التى قدمها لتينداريوس. عندما كانوا جميعًا يتنافسون على هيلين ومع سخونة الوضع المتزايدة، جعل أوديسيوس كل متسابق يُقسم على أن أيًا كان من يفوز بهيلين فلا بد من أن يدافع عنه الآخرون جميعًا إذا حاول رجل آخر أن يأخذها من الفائز. بهذه الطريقة هدّأ الأحوال وسمح ببدء المباراة مع منلاوس بسلاسة: لا بد أنه عرف أن لا أمل له فيها. وقتها ـ كما تردد الشائعات ـ دخل صفقة مع تينداريوس، مقابل ضمان السلم والعرس المُربح لهيلين المشعة جمالاً، سينال أوديسيوس بينيلوب عديمة الجمال.

لكن عندى فكرة أخرى، وهى أن: تينداريوس وأبى إيكاريوس، ملكا إسبرطة، كان المفترض أن يحكما بالتبادل، واحد لعام والآخر للعام التالى، وهكذا، لكن تينداريوس أراد العرش لنفسه دون شقيقه، فعرف من الخُطاب إمكاناتهم وخططهم للمستقبل، وعرف أن أوديسيوس يعتنق النظرية الجديدة التى تقول بأن على الزوجة أن تذهب إلى أسرة زوجها لا أن يحدث العكس. هذا مناسب لتينداريوس، أن يتمكن من إبعادى، أنا وأبنائى الذين سألدهم. هكذا يصبح عدد أعوان إيكاريوس أقل فى حال دخل معه فى نزاع مباشر.

أيًا كان الموضوع، فقد غش أوديسيوس وربح السباق. رأيت هيلين تبتسم ابتسامة صفراء وهى تراقب طقوس العرس. خطر لها أننى رُهنت لأبله عجيب سيمخر بى البحر العباب، وسرّها هذا. الأرجح أنها كانت تعرف قبل أن يربح بموضوع الصفقة.

بالنسبة لى، وجدت صعوبة فى إتمام العرس: التضحية بالحيوانات.. تقديم القرابين للآلهة.. نثر اللآلئ الشهوانية، إراقة الخمر أنهارًا، الصلوات، الأغانى بين الفقرات. أحسست بالدوار. أبقيت عينى مسبلتين، فلا أرى إلا الجزء السفلى من جسد أوديسيوس. (أقدام قصيرة).. رحت أفكر، حتى فى اللحظات المهيبة من العرس. ليست هذه بالفكرة الملائمة.. فهى تافهة وسخيفة، وتحملنى على الضحك رغمًا عنى.. لكن دفاعًا عن نفسى لا بد أن أقول: إننى كنت فى الخامسة عشرة من عمرى لا أكثر.

ـ ٧ ـ

الندبة

وهكذا سلمونى إلى أوديسيوس، مثل كيس من اللحم. كيس من اللحم الملفوف بالذهب بعد إذنك. بودنج دموى متألق ذهبًا.

لكن ربما تجدون هذا المجاز وحشيًا؟ دعونى أضيف أن اللحم كان عالى القيمة فى مجتمعنا. الأرستقراط يأكلون منه الكثير.. لحم لحم لحم، ولا يؤكل إلا مشويًا. عصرنا لم يكن عصر الطعام الأنيق. آه، نسيت: كان هناك أيضًا الخبز.. خبز مفلطح.. خبز خبز خبز، ونبيذ نبيذ نبيذ. وتجد عندنا أيضًا أحيانًا ثمرة الفاكهة هذه أو حبة الخضراوات تلك، لكن لا بد أنكم لم تسمعوا بالفاكهة والخضراوات عندنا لأننا لم ننظمها فى الأشعار كثيرًا.

كان الأرباب يشتهون اللحم كما نشتهيه، لكن لم يأخذوا منّا غير العظام والدهن، والفضل هنا يعود لخفة يد بروميثيوس: لا ينخدع إلا أحمق بكيس من بقايا الأبقار المتنكرة على هيئة قطع لحم جيدة،

وقد خُدع زيوس، وهو ما يُظهر أن الآلهة ليست أذكى أبدًا مما تتوسم أنت فيها من ذكاء.

يمكننى قول هذا الكلام الآن لأننى ميتة. ما كنت لأجرؤ على قوله فيما سبق. لا يمكن أبدًا أن تقوله، فلعل الآلهة يتنصتون، متنكرين على هيئة شحاذ أو صديق قديم أو عابر سبيل. الحق أننى كنت أحيانًا أشك فى وجودهم، هؤلاء الآلهة. لكن على مدار حياتى كنت أعتبر من الحكمة ألا أغامر.

كان هناك قدر وافر من كل شىء فى مأدبة عرسى: أكوام لامعة ضخمة من اللحم، أكوام هائلة من الخبز المُعطر، أباريق كبيرة من النبيذ اليانع. من المدهش أن الضيوف لم ينفجروا من كثرة الأكل والشرب. لا شىء يحفز النهم قدر أكل طعام لم تدفع ثمنه بنفسك، كما عرفت من تجاربى فيما بعد.

كنّا فى تلك الأيام نأكل بأيدينا. وتسمع منّا الكثير من القضم والمضغ الثقيل، لكن كانت الحال أفضل هكذا.. فلا توجد أدوات مائدة حادة يمكن غرسها فى ضيف يزعجك.. فى كل عرس تسبقه مسابقة لا بد من وجود بعض الخاسرين غير المتقبلين للخسارة، لكن لم يحدث أن فقد خطيب خاسر رشده فى مأدبة عرس. وكأنهم أخفقوا فى الفوز بمزاد على حصان.

كان النبيذ ثقيلاً، فسكر الكثيرون، حتى أبى، الملك إيكاريوس، سكر. اشتبه فى أن تينداريوس وأوديسيوس تلاعبا به، وكان شبه متأكد أنهما غشّاه، لكنه لم يتبين كيف فعلا هذا، فتملكه الغضب، وعندما كان يغضب، كان يشرب أكثر، وتنهال منه التعليقات المهينة على أجداد الناس وأسلافهم، لكنه كان ملكًا، فلم يحدث أن طلب أحد مبارزته.

أوديسيوس نفسه لم يسكر. له طريقة فى الظهور بمظهر من أسرف فى الشراب دون أن يفعل. قال لى فيما بعد إن الرجل الذى يعيش بعقله، كما يفعل، عليه أن يُبقى عقله فى متناول يده، حادًا كالفأس والسيف. قال إن الأغبياء فقط يتفاخرون بإسرافهم فى الشرب. فهذا الأمر يؤدى إلى ذوات متضخمة متصارعة، ثم إلى تشتت الانتباه وتخاذل القوى، وهنا يضربك عدوك.

أما أنا، فلم أتمكن من أكل أى شىء. كنت متوترة للغاية. جلست هناك مسربلة فى حجابى حجاب العروس، أهاب النظر إلى أوديسيوس. كنت واثقة أنه سيخيب أمله فىّ ما إن يرفع الحجاب ويفك الرداء والثوب الذى وضعونى فيه. لكنه لم ينظر إلىّ، ولم ينظر إلىّ أحد. كانوا يحدقون جميعًا فى هيلين، التى راحت توزع الابتسامات المتلألئة بسخاء ذات اليمين وذات اليسار، لا يفوتها رجل واحد. لها طريقتها فى الابتسام فتجعل كل رجل يشعر وكأنها تحبه سرًا وحده دون غيره.

أظن أننى كنت محظوظة لأن هيلين فرقت انتباه الجميع، فهذا حال دون أن يلاحظونى ويلاحظوا ارتعادى وارتباكى. لم أكن متوترة فحسب، بل خائفة حقًا. الخادمات سكبن فى أذنى حكايات عن كيف ـ ما إن أدخل حجرة العرس ـ سيُفتك بى كما تُحرث الأرض، وكم هو أمر مؤلم ومهين.

أما عن أمى، فقد كفّت عن السباحة فى الأنهار لوقت كاف لأن تدير عرسى، ولم أكن ممتنة لها على ما فعلته بالقدر الكافى. جلست فى عرشها إلى جوار أبى، ملفوفة فى ثوب أزرق بارد، وبركة مياه صغيرة متكومة عند قدميها. حدثتنى قليلاً بينما الخادمات يغيرن ثوبى مرة أخرى، لكن لم أر فى كلامها عوناً وقت أن قالته.

رأيت كلامها منحرفًا، لكن وقتها طبعًا كانت كل حوريات الماء منحرفات.

ها هو ما قالته:

الماء لا يقاوم. الماء يتدفق. عندما تغمسين يدك فى الماء، كل ما تشعرين به هو العناق. الماء ليس جدارًا صلبًا، ولن يوقفك عن الخوض فيه. لكن الماء دائمًا ما يذهب إلى حيث يريد، ولا شىء يمكنه فى النهاية الوقوف أمامه. الماء صبور. قطرات الماء تُتلف الصخور. تذكرى هذا يا طفلتى، تذكرى أن نصفك ماء. إذا لم تتمكنى من تجاوز عقبة فدورى حولها، كما يفعل الماء.

بعد طقوس العرس والمأدبة، بدأت المسيرة المعتادة لحجرة العرس، مصحوبة بالمشاعل العتيدة والنكات الفجة والهتافات المخمورة. تم تزيين السرير بإكليل، ورشّوا الماء على العتبة، وسكبوا الخمر على الأرض. وضعوا حارسًا على الباب لمنع العروس من الهروب فى رعب، ولمنع صديقاتها من كسر الباب وإنقاذها عندما يسمعنها تصرخ. كل هذا تمثيل.. الحكاية وما فيها أن العروس سُرقت، ويُفترض لإتمام الزواج أن تُغتصب اغتصابًا شرعيًا. المسألة مسألة مسابقة، مواجهة الخصم وهزيمته، محاكاة لعملية القتل.. يُفترض أن تسيل فيها الدماء.

ما إن أُغلِق الباب، حتى أخذنى أوديسيوس من يدى وأجلسنى على السرير. قال هامسًا: "انسى كل شىء قالوه لك. لن أؤذيك، أو لن أؤذيك كثيرًا. لكن الأفضل لى ولك أن تتظاهرى بالألم. قيل لى إنك فتاة ماهرة. هل تعتقدين أنك قادرة على اصطناع بعض الصرخات؟ هذا سيرضيهم.. إنهم يتنصتون على الباب.. ثم سيتركوننا فى سلام وسنأخذ وقتنا فى أن نصبح أصدقاء".

كان هذا سرًا من أسراره الكبرى، أنه مُقنع.. يمكنه إقناع أى شخص بأنه وذلك الشخص يواجهان عقبة واحدة، وأن عليهما التعاون للتغلب عليها. يمكنه تحويل أى مستمع إلى متآمر فى مؤامرة صغيرة من صنعه. لا أحد يجيد هذا الأمر أفضل منه.. ها هى الحكايات لم تكذب هذه المرة على الأقل. وله صوت رائع أيضًا، عميق رنان، لذا بالطبع فعلت ما طلبه.

بعد ذلك اكتشفت أن أوديسيوس ليس من الرجال الذين بعد أن ينتهوا ينامون على جنبهم ويشخرون. دعك من أننى لم أكن أعرف بهذه الخصلة الذكورية من تجربتى الخاصة، لكن وكما قلت، كنت أستمع إلى الخادمات بكثرة. لا.. كان أوديسيوس يحب الحديث، وبما أنه متحدث مفوه فقد كنت أحب الاستماع. أعتقد أن هذا أكثر ما أحبَّه فىَّ: قدرتى على تقدير حكاياته والإعجاب بها. فهى موهبة من مواهب النساء لا تحظى بالتقدير الكافى.

لاحظت مرة ندبة طويلة على فخذه، فبدأ يحكى لى كيف أصيب بها. فكما قلت، جده هو أوتولايكوس، الذى زعم أن الرب هيرمس أبوه. وكأنه يؤكد أنه لص عتيد، نصاب، وكاذب ممعن فى النصب والكذب، وأن الحظ يحالفه فى هذا النوع من الأنشطة.

أوتولايكوس هو جد أوديسيوس من جانب أمه أنتيكليا، التى تزوجت من لايرتس ملك إيثاكا ومن ثم فهى حماتى. هناك شائعة فضائحية عن أنتيكليا، أن سيزيف أغراها وغرر بها، وأنه هو والد أوديسيوس الحقيقى، لكن أجد من الصعب تصديقها، فمن الذى عساه يُقبل على إغراء أنتيكليا؟ وكأنك تغرى رأس مركب. لكن دعونا ننحى هذه الحكاية جانبًا الآن.

كان سيزيف رجلاً مخادعًا لدرجة أن قيل عنه إنه خدع الموت مرتين: مرة بعد أن خدع الملك هيدز فأقنعه بأن يقيد يديه ثم رفض سيزيف أن يفك قيده، ومرة بأن أقنع برسيفون بأن تدعه يخرج من العالم السفلى لأنه لم يُدفن دفنة لائقة، ومن ثم فهو لا ينتمى إلى ضفة نهر ستايكس الخاصة بالموتى. إذن فلو صدقنا شائعة خيانة أنتيكليا، يتضح أن فى شجرة عائلة أوديسيوس رجلاً أو اثنين ماهرين واسعى الحيلة.

بغض النظر عن حقيقة ما حدث، فإن جده أوتولايكوس - الذى أسماه أوديسيوس - دعا أوديسيوس إلى جبل برناسوس ليأخذ هدايا وعده بها يوم مولده. أجرى أوديسيوس تلك الزيارة، وخلالها مضى يصطاد الخنازير البرية مع أبناء أوتولايكوس. وكان ما أصابه فى فخذه خنزير برى متوحش، فحدثت الندبة.

هناك شىء ما فى الطريقة التى حكى بها أوديسيوس تلك الحكاية، جعلتنى أرتاب فى أن فيها المزيد: لماذا هاجم الخنزير أوديسيوس ولم يهاجم الآخرين؟ هل كانوا يعرفون أن الخنزير يترصده؟ هل قادوه إلى شَرك؟ هل كان المفترض أن يموت أوديسيوس حتى لا يضطر أوتولايكوس المخادع لتسليمه الهدايا التى يدين له بها؟ ربما.

فضلت أن أصدق تلك الرواية. فضلت أن أتخيل وجود شىء مشترك بينى وبين زوجى: كلانا دُمر فى صغره على يد أقارب. وهو سبب أدعى لأن نبقى معًا وألا نثق فى الآخرين بسرعة.

مقابل حكايته عن الندبة، حكيت لأوديسيوس حكايتى عن الغرق وإنقاذ البط. اهتم بالحكاية، وسألنى عنها أسئلة، وتعاطف معى..

كل ما تحتاجه من المستمتع. قال: "يا بطتى المسكينة".. وراح يربت علىّ: "لا تخافى. لا يمكن أبدًا أن أرمى فتاة عزيزة هكذا فى البحر". وقتها بكيت بعض الوقت وأحسست بالراحة بطريقة تلائم ليلة عرس.

وهكذا ومع حلول الصباح، كنت قد أصبحت وأوديسيوس صديقين حقًا، كما وعدنى أوديسيوس. أو دعونى أقول ما أريده بكلمات أخرى: نمت عندى مشاعر صداقة نحوه.. والأكثر، مشاعر حب وعشق.. وتصرف هو وكأنه يبادلنى الشعور. وهذا ليس كذاك.

بعد مرور بعض الأيام، أعلن أوديسيوس عن نيته أخذى ومعى مهرى إلى إيثاكا. انزعج أبى، فقد كان يريد مراعاة الأعراف والتقاليد، على حد قوله، مما يعنى أنه يريدنى ويريد ثروتنا الجديدة هنا تحت إمرته. لكن دعمنا عمى تينداريوس، الذى كان صهره - زوج هيلين - منلاوس شديد البأس، فاضطر إيكاريوس إلى التراجع عن موقفه.

ربما سمعتم أن أبى ركض وراء عربة الخيول التى خرجت بنا من عنده، وأنه راح يرجونى أن أبقى معه، وأن أوديسيوس سألنى إن كنت ذاهبة إلى إيثاكا معه من واقع إرادتى الحرة أم أننى أفضل البقاء مع أبى؟ قيل إننى على سبيل الإجابة أنزلت حجابى، لكونى أكثر حياء من أن أعلن عن رغبتى فى زوجى بالكلام، وأنه قد شُيد فيما بعد تمثالاً فى ذكراى لإحياء فضيلة الحياء.

هناك شىء من الصحة فى هذه الحكاية. لكننى أنزلت حجابى لأخفى ضحكى. لا بد أن تعترفوا أن ثمة شيئًا مضحكًا فى أب سبق

أن رمى بابنته فى البحر، ثم جاء يركض وراء نفس الابنة قائلاً لها: "ابقى معى!"

لم أشعر بالرغبة فى البقاء. فى تلك اللحظة، كنت لا أكاد أطيق انتظار لحظة فراق بلاط إسبرطة. لم أكن سعيدة للغاية هناك، وكنت أشتاق لبدء حياة جديدة.

ـ ٨ ـ

الجوقة

آه لو كنت أميرة.. أوبريت شعبى

تؤديها الخادمات مصحوبة بالكمان والأكورديون وفلوت

الخادمة الأولى:

آه لو كنت أميرة، عندى الفضة والذهب

يحبنى بطل، ما كنت لأكبر أبدًا..

آه لو جاء بطل شاب ليتزوجنى

كنت لأبقى دائمًا جميلة.. سعيدة.. حرة!

الجوقة:

إذن أبحرى يا سيدتى الشابة على جناح موجات المدّ...

الماء تحتك مظلم كالقبر،

وربما تغرقين فى قاربك الأزرق الصغير...

إنه الأمل، والأمل وحده، الذى يبقينا على وجه الماء.

الخادمة الثانية:

هاتى، "شيلى"، أسمع وأطيع،

حاضر يا سيدى، ولا يا "ستّى" طوال يومى الأغبر.

أبتسم وأنكس رأسى والدمعة فى عينى،

أرتب الأسرّة الناعمة التى يرقد عليها الآخرون.

الخادمة الثالثة:

يا الآلهة ويا الأنبياء، أرجوكم، غيروا حياتى،

وهاتوا بطلاً شابًا يتخذنى زوجته!

لكن لا يأتينى بطل، باكرًا أو متأخرًا...

الحياة الشاقة مصيرى، الموت قدرى!

الجوقة:

إذن أبحري يا سيدتي الجميلة، على جناح موجات

المد...

الماء تحتك مظلم كالقبر،

وربما تغرقين في قاربك الأزرق

الصغير...

إنه الأمل، والأمل وحده، الذي يبقينا على وجه

الماء.

الخادمات جميعًا يقمن بتحية الجمهور.. انحناء.

الخادمة ميلانتو جميلة الوجنتين تمر على المتفرجين تمد يدها بالقبعة المقلوبة:

شكرًا لك يا سيدي. شكرًا، شكرًا.

شكرًا. شكرًا

ـ ٩ ـ

الدجاجة المنقنقة محل الثقة

كانت الرحلة البحرية إلى إيثاكا طويلة ومخيفة، ومثيرة للغثيان أيضًا، أو على الأقل كانت هذه تجربتى. أمضيت أغلب الوقت راقدة أو أتقيأ، وأحيانًا أفعل الشيئين معًا. ربما كان عندى نفور من البحر بسبب تجربتى فى الصغر، أو ربما إله البحر بوسيدون كان ما زال ساخطًا من فشله فى التهامى.

وهكذا رأيت القليل من جمال السماء والسحب التى راح أوديسيوس يتحدث عنها فى زياراته القليلة لى ليطمئن علىّ. أمضى أغلب الوقت عند رأس المركب، ينظر أمامه (هكذا تخيلت) نظرة صقر، بحثًا عن الصخور وثعابين البحر والأخطار المحدقة الأخرى، أو عند مؤخرة المركب، أو يوجه المركب بطريقة ما.. لا أعرف كيف، لأننى لم أركب قاربًا من قبل فى حياتى.

كان انطباعى عن أوديسيوس حسنًا منذ ليلة عرسنا، وكنت معجبة به كثيرًا، وعندى إحساس متضخم بقدراته. تذكروا أننى

كنت فى الخامسة عشرة؛ من ثم كنت واثقة فيه أبلغ الثقة، وأعتبره قبطانًا لا يشق له الغبار.

أخيرًا وصلنا إيثاكا، ودخلنا بالمركب إلى الميناء، وكانت تحيط به منحدرات صخرية حادة. لا بد أنهم وضعوا من ينتظرنا فأشعلوا النار لإعلان اقترابنا، لأن الميناء كان زاخرًا بالناس. سمعت قدرًا من الهتاف والكثير من التدافع ممن أرادوا معرفة شكلى وقت أن وطئت الأرض.. وهو دليل واضح على أن أوديسيوس نجح فى مهمته، وأنه جلب معه عروسًا بنت حسب ونسب بهداياها القيمة.

تلك الليلة عقدوا مأدبة لوجهاء البلدة. حضرت تلك المأدبة، وأنا أرتدى حجابًا لامعًا وأحد أفضل الأثواب التى جلبتها معى تطريزًا، وكان فى صحبتى خادمة جلبتها معى بدورها. هى هدية عرس مقدمة لى من أبى. اسمها أكتوريس، ولم تكن سعيدة لأنها فى إيثاكا معى؛ فهى لم ترغب فى ترك مُتع القصر الإسبرطى وصديقاتها من الخادمات، ولم ألمها. وبما أنها لم تكن شابة بالمرة (فحتى أبى ليس غبيًا بما يكفى لإرسال فتاة فى مقتبل العمر معى، لا سيما أن إحدى مهامها كانت حراسة حجرة نومنا كل ليلة لمنع الدخلاء) فلم تدم طويلاً. تركنى موتها وحيدة فى إيثاكا، غريبة وسط غرباء.

بكيت كثيرًا فى تلك الأيام الأولى. حاولت إخفاء تعاستى عن أوديسيوس، فلم أرغب فى الظهور بمظهر الجاحدة للأفضال. وهو استمر فى رعايته ولطفه كما كان فى البداية، وإن كان سلوكه أشبه بسلوك شخص بالغ مع طفلة. كثيرًا ما رأيته يتأملنى ويدرسنى، رأسه مائل على جانبه وذقنه فى يده، وكأننى لُغز.. لكن هذه عادته مع الجميع، كما اكتشفت بعد ذلك بقليل.

قال لى مرة: إن لكل إنسان بابًا خفيًا، وهو الطريق إلى القلب، وأن مما يشرفه أنه قادر على الوصول دائمًا لمقابض تلك الأبواب. فالقلب مفتاح وقفل، والقادر على السيطرة على قلوب الرجال وإدراك أسرارها، قادر على السيطرة على المصائر والإمساك بخيوط قدره. وأضاف مسرعًا: أنه لا يمكن لأى إنسان أن يسيطر على قدره. ولا حتى الآلهة، على حد قوله، أقوى من شقيقات القدر الثلاث. لم يذكرهن بالاسم، بل بصق لتفادى الحظ السيئ، وارتعدت أنا إذ تصورتهن فى كهفهن الكابى يغزلن حياة الناس، يقمن بقياسها، وقصها على مقاسات.

سألته بطريقة حاولت أن تكون دافئة مداعبة: "هل لقلبى بابًا مخبوءًا؟ وهل وجدته أنت؟"

وقتها لم يصدر عن أوديسيوس غير ابتسامة.. قال: "أخبرينى أنت".

"وهل عندك باب مفض إلى قلبك أيضًا؟ وهل وجدت أنا المفتاح؟" يحمر وجهى خجلاً من تذكر النغمة المتكلفة التى سألت بها هذا السؤال.. كانت مصحوبة بابتسامة من نوع ابتسامات هيلين. لكن أوديسيوس التفت، وراح ينظر من النافذة، وقال: "دخلت الميناء سفينة. وليست بسفينة أعرفها". وكان مقطب الجبين عابسًا.

سألته: "هل تنتظر أخبارًا؟"

أجاب: "أنتظر الأخبار دومًا".

لم تكن إيثاكا جنّة. كان جوها عاصفًا كثير الرياح فى أغلب الأحيان، وكثيرًا ما كانت تمطر، والطقس بارد، وكان النبلاء منها فى

حالة رثة مقارنة بمن اعتدت رؤيتهم، والقصر - وإن كان كافيًا - لم يكن يعتبر كبيرًا.

وهناك بالطبع الكثير من الصخور والماعز، كما قيل لى فى ديارى. لكن هناك أيضًا بقرات وخرافًا وخنازير وطحينًا لعمل الخبز وأحيانًا ثمرة كمثرى أو تفاحة أو حبة تين، كل فى موسمها. من ثم كانت مائدة طعامنا مستورة، ومع الوقت اعتدت القصر. كما أن كون رجل كأوديسيوس زوجى ليس بالأمر الهين. كل أبناء المنطقة يتطلعون إليه فى احترام، وطالبو نصحه ومقدمو الطلبات إليه لا حصر لهم. البعض يأتونه فى سفن من بعيد ليشاوروه فى أمرهم، لأنه معروف بكونه رجلا قادرًا على فك أى عقدة، وإن كان أحيانًا يفكها بتعقيد ربطاتها.

أبوه لايرتس، وأمه أنتيكليا، كانا ما زالا فى القصر فى ذلك الوقت. لم تكن أمه قد ماتت بعد.. بعد أن ذبلت من انتظار عودة أوديسيوس، وأشك أن من أسباب موتها أيضًا جهازها الهضمى المعتل طافح المرارة. وأبوه لم يكن قد هجر القصر يأسًا من غياب ابنه ليعيش فى كوخ ويعاقب نفسه بالفلاحة. كل هذا سيحدث بعد أن يغيب أوديسيوس لسنوات، لكن لم تظهر بوادر ما سيحدث بعد.

حماتى كانت امرأة حذرة مراوغة. كانت قليلة الأسنان، ورغم أنها رحبت بى ترحيبًا رسميًا أدركتُ أننى لم أعجبها. راحت تقول إننى صغيرة قطعًا. ألمح أوديسيوس فى جمود إلى أن هذا عيب سيتكفل الزمن بعلاجه.

المرأة التى أتعبتنى كثيرًا فى البداية كانت مربية أوديسيوس وهو صغير، يوريكليا. كانت تحظى باحترام الجميع - على حد قولها -

لأنها موثوقة إلى أبعد حد. هى فى القصر منذ جلبها والد أوديسيوس، وكان يثمنها كثيراً لدرجة أنه لم ينم معها. قالت لى فى صوت كنقنقة الدجاج: "تخيلى هذا، وأنا جارية!" وكانت مزهوة بنفسها.. "وكنت جميلة جدًا فى تلك الأيام!" قالت لى بعض الخادمات إن لايرتس امتنع عنها ليس احترامًا لها، بل خوفًا من زوجته، التى ما كانت لتدعه يحظى بأدنى قدر من السلام إذا اتخذ عشيقة. على حد وصف إحدى الخادمات: "أنتيكليا تلك قادرة، لو نظرت للشمس تتجمد". كنت أعرف أن علىّ تأديب الخادمة على قلة أدبها، لكن لم أتمكن من كتم ضحكتى.

أظهرت يوريكليا مكانتها لى بأن أخذتنى فى جولة فى القصر لترينى مكان كل شىء، وكما راحت تقول: "حتى تعرفى كيف ندبر أمورنا هنا". كان لا بد أن أشكرها على ما فعلت، من قلبى ومن شفتى، إذ إنه ليس هناك ما يبعث على الحرج أكثر من مخالفة سلوكيات المكان، فيظهر الجهل بعادات من حولك. عرفتنى أمورًا من قبيل: هل يصح أن أغطى فمى وأنا أضحك، وما المناسبات التى أرتدى فيها الحجاب، وما مقدار ما أخفى من وجهى، وما عدد مرات الاستحمام الصحيحة.. كانت يوريكليا خبيرة فى كل هذه الأمور. كان هذا من حسن حظى؛ لأن حماتى أنتيكليا - التى كان المفترض أن تتولى زمام الأمور بهذه الطريقة - كانت راضية بالجلوس فى صمت لا تقول شيئًا، بينما أرتكب أنا أعمالاً بلهاء، وعلى وجهها ابتسامة متوترة صغيرة. كانت سعيدة بأن ابنها الحبيب أوديسيوس فاز هذا الفوز الكبير.. أميرة إسبرطية لا يُستهان بها.. لكن أعتقد أنها كانت لتفرح أكثر إذا مُت بدوار البحر فى الطريق إلى إيثاكا ووصل أوديسيوس إلى دياره ومعه هدايا العُرس دون العروس. كانت كلمتها المتكررة معى هى: "شكلك مريضة".

هكذا تفاديتها كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً، ولازمت يوريكليا، التى كانت على الأقل ودودة. كانت كنزًا من المعلومات عن كل العائلات النبيلة المجاورة، وهكذا عرفت الكثير من المعلومات الفضائحية عنهم ستفيدنى فيما بعد.

كانت لا تكف عن الكلام ولا أحد فى العالم خبير بأودوسيوس مثلها. كانت عامرة بالمعلومات عن الأمور التى يحبها، وكيف يُحب أن يُعامل.. ألم ترضعه من ثديها وترعَه وهو رضيع؟ ألم يكبر على يدها شابًا يافعًا؟ لا أحد إلا هى يجهز له حمامه، ولا أحد غيرها يدلك كتفيه بالزيت، ويحضر له إفطاره ويحتفظ له بأغراضه الثمينة، ويُخرج له ثيابه ليرتديها، وهلم جرّا. لم تترك لى شيئًا أؤديه، ولا أى خدمات يمكننى أداؤها لزوجى، إذ كلما حاولت أداء أى مهمة "زوجية" صغيرة، أجدها على رأسى تقول لى ليس هكذا يحبها أوديسيوس. حتى ثيابه التى أحيكها له ليست مناسبة، إما ضيقة أو ثقيلة أو صلبة أو ضعيفة.. تقول: "هذه ثياب تليق بخادم، وليس أوديسيوس".

إلا أنها حاولت أن تكون طيبة معى بطريقتها الخاصة. تقول: "سوف نعمل على زيادة وزنك، حتى تأتى بابن جميل وقوى لأوديسيوس! هذه وظيفتك، اتركى كل شىء بخلاف ذلك لى". وبما أنها كانت أقرب ما تكون لإنسانة يمكننى الحديث معها - بالإضافة إلى أوديسيوس - فقد تقبلتها مع مرور الوقت.

كانت مفيدة للغاية عندما وُلد تليماخوس. أنا مُلزمة بأن أقر لها بهذا. تلت الصلوات لأرتيميس عندما كان ألمى أعظم من أن أتكلم، وأمسكت بيدىّ وجففت العرق عن جبينى، وأمسكت بالطفل

وغسلته ثم لفته فى ثياب ودفأته، فلو كان هناك شىء واحد تعرفه - كما قالت لى مرارًا - فهو الأطفال. لها لغة خاصة تتواصل بها معهم، لغة من الهراء. "يا كوكو" .. هكذا كلمت تليماخوس وهى تجففه بعد حمامه - كيتى كيتى كيتى كيتى!" - وكم أزعجنى أن أتخيل أوديسيوس - عريض المنكبين عميق الصوت، ذلك الرجل الماهر فى الإقناع، الفصيح المهيب - وهو طفل هكذا راقدًا بين ذراعيها وهى تخاطبه هذا الخطاب العجيب.

لكن لا يمكننى الحقد عليها بسبب ما أنعمت على تليماخوس من رعاية. سرورها به كان بلا حدود. وكأنها هى التى ولدته بنفسها.

سُر بى أوديسيوس كثيرًا. بالطبع كان مسرورًا. قال: "لم تلد هيلين ابنًا بعد"، وهو التعليق الذى كان يفترض أن يبعث فى السرور. وقد فعل. لكن على الجانب الآخر، لماذا ما زال - وكان دائمًا - يفكر فى هيلين؟

ـ ١٠ ـ

الجوقة

مولد تليماخوس ـ أغنية ريفية

تسعة شهور وهو مُبحر في بحار دماء أمه الحمراء النبيذية

من كف الليل المهيب، من غياهب النوم

من الأحلام المتعبة أبحر

في قاربه الأسود الهش، قارب ذاته

في قلب اليم المخيف

داخل أمه أبحر

من كهف بعيد حيث تُغزل

حياة الرجال

يقسن الخيوط ثم يقطعنها

شقيقات القدر الثلاث، منكبات على

صنعتهن المقززة

وحياة النساء بدورها تُمزج خيوطها

في الجدائل

ونحن ـ الاثنتا عشرة اللاتي سيمتن فيما بعد

على يديه

بناء على أمر أبيه الغاشم

أبحرنا أيضًا، فيْ قوارب ذواتنا

الهشة المظلمة

وسط بحار هوجاء

هي أمهاتنا المتورمات متقرحات الأقدام

لم يكنّ ملكات، بل جماعة مهلهلة

جرباء

باعوهن وتاجروا فيهن وأسروهن واختطفوهن

من الأقنان ومن الغرباء

بعد رحلة الشهور التسعة وصلنا

إلى البر

لامسنا الأرض في نفس لحظة وصوله لها

غشانا نفس الهواء المعادي

أطفال رضع وهو طفل رضيع، نبكي

كما يبكي هو

لا حيلة لنا كما لا حيلة له، لكن عشرة أضعاف

قلة حيلته

فقد انتظروا مولده وعقدوا على شرفه المآدب

وهو ما لم يحدث عند ميلادنا

أمه جاءت للدنيا بأمير. أمهاتنا الكثيرات

ولدن لا أكثر، وضعن خرافًا أو خنازير أو نفايات

أو مهرات أو جراءً أو هرر فقس بيضهن

كنا صغار الحيوانات، لا بأس بالتخلص منّا

نُباع ونُغرق في البئر ويُتاجر فينا ونستخدم،

يتخلصون منّا لو كنا بلا فائدة

وهو له أب، ونحن ظهرنا من العدم

مثل زعفرانة، مثل وردة، مثل عصافير

تولد في الطين.

حياتنا غُزلت خيوطها في جدائل حياته، نحن أيضًا

كنا أطفالاً

عندما كان طفلاً

كنا حيواناته الأليفة، ألعابه، شقيقاته وقت الحاجة،

رفيقاته الصغيرات

كبرنا كما كبر، ضحينا أيضًا، ركضنا كما

ركض.

وإن كُنا أقذر وأجوع، ضربتنا الشمس

أغلب أيامنا بلا لحم نأكله

وهو رآنا ملك يمينه، لأي غرض كان

اختار أن نرعاه ونطعمه،

أن نحممه ونسليه

أن نهز له فراشه لينام في قوارب ذواتها

الخطيرة

لم نكن نعرف ونحن نلعب معه

هناك على الرمل

على شاطئ جزيرة الماعز الصخرية، جزيرتنا

على مقربة من الميناء

أنه كان مقدرًا له، أن يتحول إلى

قاتلنا الغاضب المراهق

لو كنّا نعرف،

هل كنّا لنغرقه وقتها؟

الأطفال الصغار قساة القلب أنانيون..

الكل يشاءون الحياة

اثنتا عشرة على واحد، ما كان

لينجو

هل كنا نفعلها؟ في دقيقة واحدة

ولا أحد ينظر إلينا؟

ندفع رأسه الطفولي البريء

تحت الماء

بأيدينا، أيدي الخادمات الصغيرات البريئة

ونلوم الموج. هل كنا لنفعلها؟

اسألوا الشقيقات الثلاث، غازلات

متاهاتنا الحمراء كالدم

غازلات حياة الرجال بالنساء

والنساء بالرجال

هن وحدهن يعرفن كيف كان يمكن

أن تتغير الأحداث

إلا أنهن يعرفن دواخل قلوبنا

وستجد إجابتك عندهن.

ـ ١١ ـ

هيلين تدمّر حياتى

بعد فترة اعتدت بيتى الجديد أكثر، وإن كانت سلطتى فيه قليلة، مع إدارة يوريكليا وحماتى لكل أمور القصر واتخاذهما لكل تلك القرارات. كان أوديسيوس يتولى أمر المملكة، بطبيعة الحال، مع تدخل والده لايرتس من الحين للآخر، إما لينازع ابنه فى قراراته، أو ليدعمها. بمعنى آخر، كانت حياة العائلة بكل ما فيها من شد وجذب حول "لمن الكلمة" ومن بيده ناصية الأمور. كنا جميعًا متفقين على أمر واحد: ليس بيدى.

أوقات العشاء كانت مثيرة للتوتر بشكل خاص، فيها الكثير من التذمر والاستياء والتكشير من الرجال، وفترات صمت طويلة تحيط بحماتى. عندما أحاول الحديث إليها لا تنظر إلىّ وهى تجيبنى، بل توجه كلامها لمقعد أو منضدة. وكما يليق بحوار مع قطع الأثاث، كانت تلك التعليقات خشبية جامدة.

كما اكتشفت أن من الباعث على السلام أن أبتعد عن الأمور، وأن ألزم نفسى بحمل تليماخوس، عندما تسمح لى يوريكليا بذلك. وتقول لى: "أنت نفسك لا تزيدين عن طفلة" وهى تأخذ الطفل من ذراعىّ، وتضيف: "هاتيه، سوف أرعى حبيبى الصغير بعض الوقت. اذهبى أنت واستمتعى بوقتك".

لكن لم أكن أعرف كيف أفعل هذا. أسير على امتداد الصخور أو على الشاطئ وحدى كفتاة ريفية أو جارية؟ لا يمكن طبعا. كلما خرجت تخرج معى خادمتان؛ فأنا لى سمعة أصونها، وسمعة زوجة الملك تخضع طوال الوقت للتدقيق والمتابعة، لكن الخادمتين تسيران ورائى بعدة خطوات، كما يقول العُرف. كنت أشعر وكأنى من خيول السباقات وقد خرجت فى موكب، أسير بثيابى الثمينة بينما ينظر إلىّ البحارة وتتهامس عنى نساء البلدة. لا صديقة لى من عمرى أو مركزى، من ثم لم تكن هذه الرحلات ممتعة للغاية، ولهذا السبب زادت ندرتها مع الوقت.

أحيانًا أجلس فى فناء القصر، أغزل الصوف فى خيوط وأنصت إلى الخادمات يضحكن ويغنين ويقهقهن فى البنايات الخارجية للقصر وهن يؤدين أعمالهن. عندما تمطر السماء آخذ صوفى وغزلى إلى ركن النساء. هناك على الأقل سأجد صحبة، إذ سأجد دائماً مجموعة من الخادمات حولى. كنت أستمتع بالغزل، إلى درجة ما. كان بطيئًا ورتيبًا ومريحًا للأعصاب، ولا أحد ـ ولا حتى حماتى ـ يمكنه أن يتهمنى بأننى جالسة لا أفعل شيئًا بينما أنا أغزل. هى لم تنطق بكلمة أبدًا بهذا المعنى، لكن هناك دائمًا شىء ما فيها يوحى بتوجيهها الاتهامات الصامتة.

كنت أمكث فى حجرتنا كثيرًا ـ حجرتى وأوديسيوس. كانت حجرة جيدة بما يكفى، تطل على البحر، وإن كانت أقل من حجرتى فى إسبرطة. أعد أوديسيوس فيها سريرًا خاصًا، أحد أعمدته هو جذع شجرة زيتون جذورها ما زالت فى الأرض. بهذه الطريقة - على حد قوله ـ لا يمكن لأحد أن يحرك السرير أو يغيره أبدًا، وهو طالع حسن لأى طفل تُبذر بذوره عليه. كان قائم السرير هذا سرًا عظيمًا: لا أحد يعرفه إلا أوديسيوس نفسه وخادمتى أكتوريس ـ التى ماتت ـ وأنا. إذا عرف أحد بهذا السرير ـ كما قال أوديسيوس مازحًا مزاحًا مخيفًا ـ فسوف يعرف أننى نمت مع رجل آخر، ووقتها على حد قوله وهو يكشر فى وجهى بطريقة قصد بها المزاح ـ فسوف يغضب كثيرًا، وسوف يقطعنى إربًا بسيفه أو يشنقنى من السقف.

تظاهرت بالخوف، وقلت إننى لن أفكر أبدًا أبدًا فى خيانة قائم سريره الضخم.

وبالفعل كنت خائفة.

إلا أن أطيب أوقاتنا كانت فى هذا السرير. ما إن ينتهى أوديسيوس من مطارحة الغرام ـ فهو دائمًا ما يحب الكلام ـ حتى يروى لى قصصًا كثيرة، حكايات عن نفسه وعن مغامرات صيده، ورحلات القرصنة والنهب التى خرج فيها وقوسه الخاص الذى لا يمكن لأحد غيره أن يشد عليه وتره، وكيف أن الإلهة أثينا تخصه بحبها بسبب عقله المبتكر ومهارته فى التخفى والتخطيط وما إلى ذلك ـ وقصصًا أخرى أيضًا، عن كيف أصابت اللعنة آل أتريوس، وكيف حصل بيريثوس على طاقية الإخفاء من هيدز وكيف قطع

رأس الجرجونة الشقية، وكيف اختطف ثيسيوس الشهير وصاحبه بيريثوس ابنة عمى هيلين وهى بعد أقل من ١٢ عامًا وكيف قاما بإخفائها ثم قاما بعمل قرعة ليحددا من سيتزوجها عندما تصبح فى سن الزواج. ثيسيوس لم يغتصبها كما كان مرجحًا أن يفعل لأنها كانت ما زالت طفلة، أو هذا ما قيل. أنقذها شقيقاها، لكن ليس قبل أن يشنوا حربًا ضد أثينا لإعادتها، كُللت بالنجاح.

هذه الحكاية الأخيرة كنت أعرفها من قبل، وقد سمعتها من هيلين نفسها. كانت مختلفة كثيرًا عندما روتها هى بلسانها. كانت حكايتها عن كيف أعجب ثيسيوس وبيريثوس كثيرًا بجمالها الربانى حتى أصابهما الدوار عندما نظرا إليها، ولم يتمكنا من الاقتراب أكثر من ركبتيها ليتوسلا منها المغفرة على ما اقترفا من ذنب. كان أكثر ما يمتعها أثناء رواية هذه القصة هو الجزء المتعلق بعدد الرجال الذين ماتوا فى الحرب الأثينية.. كانت ترى فى موتهم قرباناً قُدم لها. المؤسف أن الناس مدحوها وأطروا عليها كثيرًا وأنعموا عليها بالهدايا والأوصاف حتى إن كل هذا الكلام أفسد دماغها. تتخيل أنها قادرة على فعل أى شىء تريده، كالآلهة التى تتخيل أنها تتحدر منهم.

لطالما تساءلت: ترى لو لم تكن هيلين منتفخة بكل هذا الكِبر والصلف، لربما كنا تفادينا كل تلك المعاناة والآلام التى جلبتها على رؤوسنا بسبب أنانيتها وشبقها السافل. لماذا لم تتمكن من عيش حياة عادية؟ لكن لا.. الحياة العادية مملة، وهيلين طموحة. أرادت أن تنحت لنفسها اسمًا. كانت تتوق لأن تختلف عن القطيع.

عندما كان عمر تليماخوس عامًا، أصابتنا الكارثة. السبب هيلين، كما يعرف العالم أجمع.

أول مرة سمعنا بالكارثة المحدقة من قبطان سفينة إسبرطية رست على الميناء عندنا. كانت السفينة فى رحلة حول جزر الإغريق النائية، تشترى وتبيع العبيد. وكما هو متبع مع الضيوف أصحاب المقام الرفيع، دعونا القبطان للعشاء وعزمناه على المبيت ليلاً. هؤلاء الزوار كانوا مصدرًا جيدًا للأخبار ومحل ترحيب دائمًا ـ من مات ومن وُلد ومن تزوج مؤخرًا ومن قتل من فى مبارزة، ومن ضحى بابنه أو ابنته لهذا الإله أو تلك الربة ـ لكن أخبار هذا الرجل كانت فائقة للمعتاد.

قال إن هيلين هربت مع أمير من طروادة. ذلك الفتى ـ واسمه باريس ـ هو الابن الأصغر للملك بريام، وعرفنا أنه وسيم للغاية. كان حبًا من أول نظرة. على مدار تسعة أيام من الولائم ـ التى أعدها منلاوس بسبب مكانة الأمير الرفيعة ـ راح باريس وهيلين يتبادلان النظرات من وراء ظهر منلاوس الذى لم يلاحظ أى شىء. لم يدهشنى هذا، إذ إن الرجل غليظ وفظ كقالب الطوب. لا ريب أنه لم يُرض كِبر وغرور هيلين بما يكفى، فكانت قطوفها دانية لشخص آخر يرضيها. ثم إن منلاوس اضطر للسفر لحضور جنازة، فقام الحبيبان بتحميل سفينة باريس بأكبر قدر من الذهب والفضة تقدر السفينة على حمله ثم هربا.

منلاوس الآن فى حومة من الغضب الأحمر، وكذلك شقيقه أجاممنون، بسبب ما لحق بشرف العائلة من عار. أرسلوا المراسيل إلى طروادة يطالبون بعودة هيلين واللص، لكن عاد المراسيل خاوى الوفاض. فى الوقت نفسه كان باريس وهيلين الشريرة يضحكان عليهما من وراء جدران طروادة المنيعة. قال ضيفنا إنه لا بد أن هذا

هو ما جرى. فمثلنا جميعًا، كان يسره أن يتخيل سقوط الكبار العظماء على أنوفهم. قال إن الخلق جميعًا يتحدثون فى هذا الأمر.

بينما كان أوديسيوس يُنصت إلى حكايته، تبدل لونه وشحب وإن ظل صامتًا. لكنه تلك الليلة كاشفنى بسبب همّه. قال: "لقد أقسمنا جميعًا على قسم. أقسمنا على أحشاء حصان مقدس، فهو إذن قسم غليظ. كل رجل أقسم ذلك القسم عليه الآن أن يدافع عن منلاوس فيشد الرحال والعدة والعتاد إلى طروادة ويشن حربًا لإعادة هيلين". قال إن هذا لن يكون سهلاً؛ فطروادة منيعة جبارة، وفتحها أصعب بكثير من أثينا وقت أن حطمها شقيقا هيلين لنفس السبب.

كتمت فى قلبى رغبة لأن أقول إنه كان الأفضل أن يضعوا هيلين فى زنزانة بقبو مظلم لأنها سم يسير على قدمين، وبدلاً من هذا قلت: "هل أنت مضطر للذهاب؟" كنت منهارة من فكرة البقاء فى إيثاكا دون أوديسيوس. ما المتعة الباقية لى هنا وحدى فى هذا القصر؟ وأقصد بـ "وحدى" أننى سأبقى بلا أصدقاء أو حلفاء. لن أجد متع منتصف الليل لأعدل بها كفة تحكم يوريكليا أو صمت حماتى البارد كالثلج.

قال أوديسيوس: "لقد أقسمت القسم. فى الواقع كان القسم فكرتى. صعب علىّ أن أتنصل منه الآن".

إلا أنه حاول. عندما جاء أجاممنون ومنلاوس ـ كما كان مقدرًا لهما ـ مع رجل ثالث فى غاية الأهمية، هو بالاميديس الذى لم يكن غبيًا مثلهما، وكان أوديسيوس جاهزًا لهم. كان قد أذاع حكاية عن

أنه قد جُنّ، وليبرهن عليها بالدليل اعتمر قبعة فلاح سخيفة وراح يحرث الأرض بثور وحمار ويبذر الأرض بالملح. حسبت أننى فى غاية المهارة عندما عرضت على الضيوف الثلاثة أن أصطحبهم إلى الحقل ليروا بأنفسهم هذا المشهد البائس. قلت منتحبة: "سوف ترون، لم يعد يعرفنى، أو حتى يعرف ابننا الصغير!" وحملت الطفل معى لأدلل على ما تطفح به الحال من شقاء وهم.

كان بالاميديس هو الذى اكتشف حقيقة أوديسيوس، إذ اختطف تليماخوس من يدى ووضعه أمام المحراث، فكان على أوديسيوس إما أن يتفادى ابنه أو يدهسه.

ثم إنه اضطر للذهاب.

أثنى عليه الثلاثة الآخرون وقالوا إن عرافة قررت أن طروادة لن تسقط دون عون منه. سهّل هذا الكلام من تحوله إلى الاستعداد للمغادرة بطبيعة الحال. من منّا يقدر على مقاومة إغراء أن يخاله الناس لا غنى عنه؟

ـ ١٢ ـ

الانتـــظـــار

ماذا أقول عن السنوات العشر التالية؟ أبحر أوديسيوس بعيدًا إلى طروادة. مكثت أنا فى إيثاكا. تشرق الشمس وترتحل عبر السماء وتغرب. أحيانًا كنت أخالنى أرى فيها عربة هيليوس المتقدة نارًا. القمر يحذو حذوها، يتغير من مرحلة إلى مرحلة. إلا أننى أحيانًا أتخيل قارب أرتيميس الفضى فى قرصه. الربيع والصيف والخريف والشتاء، واحد تلو الآخر كلٌ فى منزلته المقدرة. تهب الرياح كثيرًا. تليماخوس يكبر عامًا بعد عام، يأكل لحمًا كثيرًا ويدلله الجميع.

وصلتنا أنباء عن أحوال الحرب مع طروادة: أحيانًا أخبار سارة وأحيانًا سيئة. أنشد الشعراء الأناشيد عن الأبطال الجبارين: أخيل وأجاكس وأجاممنون ومنلاوس وهكتور وإينياس والبقية. لم أهتم بهم.. رحت أنتظر أخبار أوديسيوس. متى يعود ويعتقنى من هذا الضجر؟ هو بدوره ظهر فى الأناشيد وكنت أجترّ تلك اللحظات

اجترارًا، ها هو هنا يلقى خطبة عصماء، أو هناك يوحد الفرقاء.. هنا يخترع كذبات مبهرة، أو هناك يقدم المشورة السديدة.. هنا يتخفى كعبد هارب ويتسلل إلى طروادة ويكلم هيلين نفسها، والتى كما قالت الأناشيد: حممته وعمّدته بالزيت بيديها.

لم يعجبنى هذا الجزء كثيرًا.

وأخيرًا، ها هو ذا يضع خطة الحصان الخشبى الممتلئ بالجنود. ثم راح النبأ ينتقل من مرفأ إلى آخر محمومًا: سقطت طروادة سقطت طروادة. تقارير عن مذابح عظيمة ونهب لجميع أرجاء المدينة. الشوارع حمراء دمًا، والسماء فوق القصر نار، والأطفال - الصبية - الأبرياء يُلقى بهم فى البحر من فوق الصخور، والطروادیات يوزعن على الرجال غنائم حرب، وبنات الملك بريام بينهن. وأخيرًا الخبر الذى طال انتظاره: سفائن الإغريق نصبت أشرعتها وسددت وجهتها صوب الديار.

ثم.. لا شىء.

* * *

يومًا بعد يوم أصعد إلى الطابق العلوى من القصر وأطل على الميناء. يومًا بعد يوم لا أرى أى بادرة أمل. أحيانًا أرى السفن، لكن لم تكن بينها مطلقًا السفينة التى أتوق لرؤياها.

جاءت الشائعات، تحملها السفن الأخرى. أوديسيوس ورجاله ثملوا فى أول ميناء يطأونه وتمرد الرجال، ويقول البعض لا، بل أكلوا من نبتة مسحورة فقدوا بسببها الذاكرة، وأوديسيوس أنقذهم بعد أن ربطهم وحملهم حملاً إلى السفن. يقول البعض إن أوديسيوس تشاجر مع السيكلوب العملاق ذى العين الواحدة، فيقول البعض لا، بل هو صاحب الحانة الأعور، وكانت معركة على دفع الحساب. يقول البعض إن قومًا من أكلة لحوم البشر أكلوا بعض

الرجال، فيقول البعض لا، بل هو شجار من الشجارات المألوفة، شمل عض الأذن ونزيف الأنف والطعنات وبقر البطون. قال البعض إن أوديسيوس حل ضيفًا على ربة فى جزيرة مسحورة، وأنها حولت الرجال إلى خنازير - وهى ليست مهمة صعبة فى رأيى - ثم حولتهم مرة أخرى إلى رجال، لأنها وقعت فى هواه وراحت تطعمه من أطايب الطعام الذى أعدته بيديها الخالدتين، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأنهما كانا ينامان معًا كل ليلة وقد ذهبت اللذة بعقليهما، فيقول البعض لا، بل هو بيت عاهرات محترم وأنه ينام مع "المعلمة" مجانًا.

غنى عن القول أن الشعراء أخذوا هذه الأنباء وجملوها وطرزوها كثيرًا. كانوا دائمًا يقصون النسخ الأرقى والأنبل من الحكايات فى حضورى، حيث أوديسيوس ماهر وشجاع واسع الحيلة يقاتل وحوشًا أسطورية خارقة وتعشقه الربات. السبب الوحيد لعدم عودته إلى البيت هو أن ربًا - رب البحر بوسيدون كما قال البعض - يتحداه، لأن السيكلوب الذى أصابه أوديسيوس بعاهة مستديمة هو ابنه، أو أن زمرة من الآلهة ضده، أو هى بنات القدر، أو شىء ما. المهم -كما ظهر من أناشيد الشعراء ومن ثنائهم عليه ومديحهم له - أن قوة ربانية جبارة - لا أقل - هى القادرة على منع زوجى من أن يهرع مسرعًا قدر الإمكان إلى ذراعى زوجته المحبة العذبة.

فكلما زادت مبالغاتهم، علت قيمة الهدايا التى يتوقعونها منى. وكنت دائمًا أمتثل. حتى المبالغات الواضحة المفضوحة تبعث على الراحة عندما لا يُتاح لك غيرها.

ماتت حماتي، انكمشت كالطين الجاف ومرضت من الانتظار، بعد أن اقتنعت تمام الاقتناع أن أوديسيوس لن يعود أبدًا. في رأيها الخطأ خطئي، وليس خطأ هيلين: لو لم أحمل الطفل إلى الحقل؟!

ويوريكليا العجوز طعنت في السن. وكذلك فعل حماي، لايرتس. فقد اهتمامه بحياة القصر ومضى إلى الريف هائمًا على وجهه في أحد حقوله، حيث يمكن أن تراه هنا أو هناك في ثياب رثة يتمتم عند شجر الكمثرى. أعتقد أنه قد مسّه لُطف.

وهأنا أدير ضياع أوديسيوس الضخمة وحدي تمامًا. لم أكن جاهزة مطلقًا لهذه المهمة أثناء حياتي السابقة في إسبرطة. كنت أميرة على كل حال، والعمل هو ما يفعله الآخرون. وأمي، رغم أنها كانت ملكة، لم تكن مثالاً جيدًا يُحتذى. لم تكن مهتمة بالقضايا من نوع ما الطعام التي يُفضل تقديمه في القصر المنيف، بما أن قطع اللحم الضخمة كانت الوجبة الرئيسية، وكانت تفضل - على الأكثر - سمكة صغيرة أو سمكتين، ومعها سلطة من أعشاب البحر. كانت لها طريقة معينة في أكل السمك النيئ.. الرأس أولاً، وهو النشاط الذي كنت أراقبه في دهشة تصحبها القشعريرة. هل نسيت أن أخبركم أن أسنانها كانت صغيرة ومدببة؟

كانت لا تحب توجيه الأوامر للعبيد أو معاقبتهم، رغم أنها قتلت فجأة خادمة أزعجتها - فهي لم تكن تفهم قيمتها كملك من الممتلكات - ولم تكن تهتم بالغزل والحياكة. كانت تقول: "عُقد كثيرة. هذا عمل العناكب. دعوه لأراكني" (*). أما بالنسبة للإشراف على تجهيز الطعام وقبو النبيذ وما تدعوه "ألعاب البشر الفانين الذهبية"

(*) أراكنى في الأسطورة اليونانية امرأة غانية ماهرة، ما هو للغاية في الغزل، وكانت تتباهى بأنها فى الغزل أمهر من الربة أثينا ربة الحكمة، ورفضت أراكنى أن تقر بأن جزءًا من مهارتها وعلمها جاء جزئيًا علي الأقل من تلك الربة. أغضب هذا الربة كثيرًا، فأعدت لمسابقة بين غازلتين. أشعل الحسد قلب الربة عندما رأت عمل الغازلة الماهرة، فدمرت البساط الذي غزلته وقطعت وجه أراكنى. في النهاية حوّلت الربة أثينا أراكنى إلي عنكبوت. كلمة «أراكني» تعني بالونانية «عنكبوت».

التي تودع في مخازن القصر العملاقة، فكانت تضحك من تلك الفكرة، وتقول: "حوريات الماء لا يمكنهن العد أكثر من الرقم ثلاثة. السمك يتحرك في أسراب وليس في قوائم وأرقام. سمكة سمكتان ثلاث سمكات، سمكة أخرى، سمكة أخرى، سمكة أخرى! هكذا نعد السمكات!" تضحك ضحكتها الرنانة.. "نحن الخالدات لسنا بخيلات، نحن لا نجمع ولا نخزن، هذه الأشياء لا لزوم لها". ثم تبتعد أو تسبح في نافورة القصر، أو تختفي لأيام لتحكي النكات للدلافين وتلاعب أصداف البحر.

وهكذا، في قصر إيثاكا اضطررت للتعلم من الصفر. في البداية عرقلتني يوريكليا، التي أرادت أن تتولى مسئولية كل شيء، لكن أخيرًا أدركت أن الأمر أكبر منها، حتى لو كانت تحب التسلط هكذا. مع مرور السنوات وجدت نفسي أقوم بالجرد، فحيثما يوجد العبيد تجد السرقات إن لم تنتبه لهم، ورحت أجرد مخازن القصر ودواليبه. كانت بعض ثياب الرقيق خشنة ورثة الحال، وقد بلت وتقطعت بعد فترة، فكنت أقول للغازلات والنساجات ما عليهن عمله. وكان القائمون على طحن الذرة يقبعون في الدرج السفلي من سلم العبيد، وكانوا يُحبسون في بناية خارج القصر ـ وعادة ما كانوا يوضعون هناك كعقاب على سوء الفعل، وأحيانًا كان ينشب بينهم الشجار، لذا كان يجب أن أنتبه للعداوات ومحاولات الثأر فيما بينهم.

كان من المفترض ألا ينام العبيد مع الجواري، ليس دون إذن. وهذه قضية شائكة، فأحيانًا يحبون بعضهم وتظهر بينهم الغيرة مثل سادتهم، وهو ما قد يؤدي إلى مشاكل كثيرة. إذا خرج هذا الأمر عن السيطرة قد أضطر لبيعهم. لكن إذا وُلدت طفلة جميلة من هذه المضاجعات أحتفظ بها وأربيها بنفسي فأعلمها كيف تكون خادمة مهذبة ولطيفة. ربما بالغت في تدليل بعض هؤلاء الأطفال، كما قالت يوريكليا كثيرًا عني.

ميلانتو جميلة الوجنتين كانت واحدة من هؤلاء الأطفال.

من خلال مدير أعمالي كنت أتاجر لأحصل على احتياجات الحياة، وسرعان ما ذاع صيتي بصفتي ماهرة في التفاوض. من خلال مساعدي أشرفت على المزارع والقطعان، وتعلمت أشياءَ مثل رعاية الغنم والماشية، وكيف أمنع الخنزيرة من أن تأكل وليدها. ومع زيادة خبرتي، أصبحت أستمتع بالمحادثات في هذه الأمور الفظة غير النظيفة. كان مبعث فخر لي عندما يأتيني راعي خنازيري يطلب مني المشورة.

كانت سياستي تتلخص في بناء وزيادة حجم ضياع أوديسيوس حتى يجد ثروته يوم يعود أكبر منها يوم غادر.. خراف أكثر وبقرات أكثر وخنازير أكثر وحقول غلال أكثر وعبيد أكثر. كانت الصورة واضحة تمامًا في ذهني.. أوديسيوس يعود، وأنا - بتواضعي الأنثوي - أكشف له كيف أحسنت صنعًا فيما يعتبر عادة من شأن الرجال. بالنيابة عنه بالطبع. دائمًا له هو. كم سيلمع وجهه من المتعة! كم سيسره أن يصبح معي! وسوف يقول: "أنت ظفرك برقبة هيلين". ألن يقول هذا؟ ثم سيضمني برفق إلى ذراعيه.

رغم كل هذا الانشغال والمسئوليات، شعرت بالوحدة أكثر من أي وقت. ما المستشارون الحكماء عندي؟ على من أعتمد حقًا إلا على نفسي؟ ليالٍ كثيرة مرت وأنا أبكي حتى يأتيني النوم أو أصلي للآلهة ليأتوني بزوجي حبيبي أو بالموت السريع. أعدت لي يوريكليا الحمامات الدافئة المريحة وجاءتني ببعض مشروبات الليل اللطيفة، وإن كانت هذه الأمور لا تمر دون ثمن. كان من عادتها ترديد المأثورات الشعبية التي من شأنها أن تشد من عزمي وتزيد إخلاصي وعملي الدءوب.. تقول أشياء مثل:

اللي تطلع عليها الشمس ودمعتها على خدها،

لا هتضم الغلّة ولا هتطبخ أكلها.

أو

اللي تضيع وقتها بُكا ودموع،

ما تزعلش لما بقرتها تموت من الجوع.

أو

ست البيت المايلة خدمها عِوجين،

تقول لهم اعملوا يقولوا تعبانين،

وإن رايداهم حرامية وفَجَرة،

إرمي العصاية واديهم الأجرة.(*)

والكثير والكثير من هذا الصنف. لو كانت أصغر سنًا لصفعتها على وجهها.

(*) ترجمة هذه الأمثال الثلاثة هى بالطبع بتصرف من المترجم. الترجمة الأمينة هى:

«تلك التى تبكى والشمس فى السماء
لن تكوم الطعام طبقات فوق طبقها»

«من تضيع وقتها على الأنين
لن تأكل بقرتها أبدًا عندما تكبر»

«سيدة الدار كسولة، يتجرأ عليها العبيد،
لن يفعلوا ما يؤمرون به
فيلعبوا أدوار اللصوص والعاهرات والمحتالين
لو تخلصت من العصا تفسدين أخلاق العبيد»

إلا أن تحفيزها لا بد وأن كان له بعض الأثر، لأنه في أوقات النهار كنت أنجح في أن أرسم على وجهي البهجة والأمل، ليس لي، على الأقل لتليماخوس. كنت أحكي له حكايات أوديسيوس، يا له من محارب صنديد، كم هو ماهر وسيم، وكيف سيصبح كل شيء على أفضل حال ما إن يعود إلى الديار.

وكان هناك قدر متزايد من الفضول بشأني، وهو طبيعي حول زوجة ـ أم هي أرملة؟ – لرجل شهير كهذا. زاد تردد السفن الأجنبية علينا، ومعها شائعات جديدة. وجاءت معهم أيضًا مجسات النبض من الحين للآخر: لو كان أوديسيوس قد مات، معاذ الآلهة، فهل أقبل عروض زواج أخرى؟ أنا وكنوزي. تجاهلت هذه التلميحات، بما أن أنباء زوجي ـ وهي محل شك لكنها أنباء ـ استمرت في التوافد.

ذهب أوديسيوس إلى أرض الموتى ليشاور الأرواح، على حد قول البعض. فيقول آخرون، لا، بل هو أمضى ليلة في كهف مظلم تملؤه الوطاويط. يقول أحدهم إنه أمر الرجال بأن يضعوا الشمع في آذانهم وهم يمرون إلى جوار عرائس البحر النداهات ـ نصف طير نصف امرأة ـ اللاتي يغرين الرجال فيذهبون إلى جزيرتهن فيأكلنهم، وإن كان قد ربط نفسه بساري السفينة حتى ينصت لغنائهن العذب دون أن يضطر للقفز من فوق السفينة. فيقول آخر، كلا، بل هو بيت دعارة صقلّي ذوقه عال يعمل فيه موسيقيون موهوبون يرتدون ثيابًا فيها ريش طيور.

من الصعب أن أحدد من أصدق. أحيانًا أخال الناس يختلقون الحكايات حتى ينبهوني، وحتى يروا عيني مغرورقتين بالدموع. هناك متعة ما في تعذيب المستضعفين.

لكن أي شائعة أفضل من عدمها، فكنت أنصت باهتمام لكل شيء. لكن بعد عدة سنوات أخرى كفّت الشائعات تمامًا، وبدا كأن أوديسيوس تبخر من على وجه الأرض.

ـ ١٣ ـ

ربان البحر المكّان ـ أغنية بحر

تؤديها الخادمات الاثنتا عشرة فى ثياب البحارة

أوديسيوس المكّار خرج من طروادة
قاربه عامر بالغنائم وقلبه تغمره الفرحة
فهو ابن أثينا البار الظافر
بأكاذيبه وخدعه وسرقاته!

فى الميناء الأول حط رحاله على شاطئ اللوتس
حيث بذلنا نحن البحارة الجهد لننسى الحرب الكريهة
لكن سرعان ما أعادنا إلى السفن السوداء

رغم كل لهفتنا وحسرتنا

والسيكلوب ذو العين الواحدة الذى هربنا منه

كان يريد أن يأكلنا فأطفأنا نور عينيه

فتانا قال: "أنا لا أحد"، ثم تباهى: "أنا من فقأ عينيه،

أنا أوديسيوس أمير الدهاء!"

إذن ها هى اللعنة المسلطة على رأسه

من غريمه بوسيدون

تلك اللعنة التى تلاحقه

وهو يُبحر ذهابًا وإيابًا

وحقيبة ضخمة من الرياح سوف تنفجر

على رأس أوديسيوس، أمهر البحارة!

نخب قبطاننا الشجاع الحر

سواء كان عالقًا على صخرة فى البحر أو نائمًا تحت شجرة

أو يتقلب بين ذراعى حورية من حوريات البحر

حيث نود جميعًا أن نكون!

ثم قابلنا أكلة لحوم البشر

الذين أكلوا رجالنا، من أمخاخهم إلى أرجلهم
وقال لهم إنه آسف لأنه طلب منهم شيئاً يأكله
أوديسيوس، ذلك الرجل الذكورى الملحمى!

على جزيرة سيرسى حولونا إلى بجعات
حتى نام أوديسيوس مع الربة فأعجبها
ثم أكل كعكها وشرب نبيذها
ومكث عندها سعيداً لمدة عام!

نخب قبطاننا إذن، حيثما ذهب وجال
نخب هنا ونخب هناك على وجه موج أليم
وهو ليس ملهوفًا على العودة إلى دياره
أوديسيوس، ذلك الماكر العتيد!

إلى جزيرة الموتى شق طريقه بعد ذلك
ملأ خندقاً بالدماء، وصد الأرواح عنه
حتى عرف ما عند تيريسياس العراف من نبوءات
أوديسيوس أمهر المراوغين!

ثم مر على غناء عرائس البحر العذب بكل شجاعة
حاولن إغراءه بالذهاب معهن إلى قبر منعم بالريش
لكن وهو مربوط بصارى السفينة راح يهذى ويخرف
لكن أوديسيوس دون غيره توصل لحل لغزهن!

دوامة شاريبديس لم تُمسك بفتانا
ولا الثعبانة شايلا، لم تقدر على اختطافه
ثم مر بسلاسة على الصخور المسننة
وكأنه الشعرة تمر من العجين!

ثم تمردنا نحن رجاله على أوامره
عندما أكلنا من أبقار الشمس، وكانت لذيذة
فى العاصفة هلكنا جميعًا، لكن قبطاننا وصل إلى البر
على جزيرة الربة كاليبسو.

بعد سبع سنوات طوال من التقبيل والإغراء
هرب على ظهر طوف ذرع به البحر بالمجداف
حتى غسلت خادمات ناوسيكا ثيابه
بعد أن عثرن عليه عاريًا على الشاطئ، وكان الماء يقطر منه!

ثم روى مغامراته وأضاف إليها
مائة من الكوارث والأهوال والمآسى
فلا أحد يعرف ماذا تخبئ الأقدار
ولا أوديسيوس، هذا الثعلب المكار!

إذن فى نخب قبطاننا، أينما كان
سواء كان هائمًا على وجه الأرض أو على صفحة الماء
لأنه ليس هنا فى هيدز، على عكسنا جميعًا
وها نحن هنا ولم تزدد حكمتنا!

ـ ١٤ ـ

الخُطّاب يأكلون بشراهة

كنت أخطر فى المروج ذلك اليوم، لو كان يومًا، أتسلى على بعض الأسفوديل، عندما وجهت أنتينوس أمامى. عادة ما يسير متباهيًا فى أجمل عباءاته وثيابه، بالبروش الذهبى وكل اللوازم التجميلية الأخرى، تبدو عليه الخيلاء والغرور، ماراً بالأرواح الأخرى فى اعتداد. لكن ما إن رآنى حتى اتخذ هيئة جثته، وراح الدم ينزف من جسده كله وسهم مخترق رقبته.

كان أول الخُطاب الذين أطلق عليهم أوديسيوس سهامه. هذا الأداء، بالسهم والدم، يعتبر بمثابة تقريظ لى، أو هذا ما يقصده منه، لكنه لم يصبنى بأى إحساس بالذنب. كان الرجل حيوانًا طفيليًا وهو على قيد الحياة، وما زال طفيليًا حتى الآن.

قلت له: "أهلاً يا أنتينوس. أرجو أن تنزع السهم من رقبتك".

"إنه سهم حبى يا بينيلوب يا ابنة الآلهة، يا أجمل وأفطن النساء.

رغم أنه من نشاب أوديسيوس الشهير، ففى الواقع كان كيوبيد هو الرامى الأقسى والأخطر. إننى أحتفظ بالسهم تذكارًا للعاطفة المشبوبة التى كنت أكنها لك، وأحمله معى إلى قبرى". مضى فى أسطوانته المشروخة هذه طويلاً، إذ كان قد تمرن على هذا الأداء كثيرًا وهو على قيد الحياة.

قلت: "على مهلك يا أنتينوس. نحن موتى الآن.. ليس عليك أن تثرثر بهذه الطريقة السخيفة هنا.. لن تربح من كلامك هذا شيئًا فلا حاجة بك إلى نفاقك المعروف وكأنه ماركة تجارية شهيرة. كن لطيفًا ولو مرة واحدة واخلع السهم؛ فهو لا يحسن من مظهرك".

راح يحدق فىّ بأسى، وعيناه فيهما انكسار وذلة. تنهد وقال: "لا ترحمين فى الحياة ولا ترحمين فى الممات". لكن السهم اختفى واختفى معه الدم، وعاد مظهره المخضر الشاحب إلى طبيعته.

قلت: "شكرًا لك. هذا أفضل. الآن يمكن أن نصبح أصدقاء، وكصديق يمكنك أن تخبرنى.. لماذا خاطر الخُطاب بحياتهم وتصرفوا بهذه الطريقة المشينة معى، ومع أوديسيوس، ليس مرة واحدة بل على مدار أعوام وأعوام؟ فلقد بلغك التحذير.. أخبرك العرافون بهلاكك الوشيك، وأرسل زيوس نفسه نذرًا على هيئة طيور وقدرًا من البرق لا يستهان به".

تنهد أنتينوس: "أرادت الآلهة تحطيمنا".

قلت: "هذا عذر أى شخص على التصرفات الشريرة. قل لى الحقيقة. الأمر لا يرتبط بجمالى الربانى المزعوم. كنت فى الخامسة والثلاثين مع انتهاء هذا الموضوع، وقد ذبلت من البكاء والعويل، وكما تعرف وأعرف أنا، كان وزنى قد زاد كثيرًا فى منطقة

الخصر. أنتم الخطاب لم تكونوا قد ولدتم بعد عندما خرج أوديسيوس إلى طروادة، أو كنتم أطفالاً رضعًا كابنى تليماخوس، أو كنتم أطفالاً يانعين على الأكثر، إذن فقد كنت أنا ومن واقع كل الأسباب العملية الممكنة، كبيرة فى سن أمهاتكم. رحتم تثرثرون عن كيف أجعل أرواحكم تنسحب منكم من هول العاطفة وكيف تشتاقون إلى مشاركتى فراشى وأن ألد لكم أطفالكم، لكن تعرفون تمام المعرفة أننى كنت قد تجاوزت مسألة الحمل والولادة هذه".

رد أنتينوس بخبث: "كنت ما زلت قادرة على "فلت" طفل أو طفلين إضافيين". ولم يتمكن من كتم ابتسامته الصفراء المتهكمة.

قلت: "هذا أقرب للصحة. فأنا أفضل الإجابات المباشرة. إذن، ما هو دافعكم الحقيقى؟"

قال: "كنا نريد الكنز الدفين بطبيعة الحال، بالإضافة إلى المملكة". هذه المرة لم يكتم ضحكة مباشرة.. "لماذا يريد شابًا أن يتزوج أرملة غنية وشهيرة؟ المفترض بالأرملة أنها تأكلها الرغبة المحرومة، خصوصاً لو كان زوجها مفقودًا أو ميتًا منذ فترة طويلة، كحالك أنت. لم تكونى كهيلين مثلاً، لكن لم يزعجنا هذا. الظلام يخفى الكثير! بل إن الأفضل أنك كنت أكبر منّا بعشرين عامًا.. كنت ستموتين أولاً، ربما ببعض المساعدة، ثم، وبثروتك نختار أى أميرة شابة وجميلة نريدها. لم تفكرين حقًا لأننا كنا مجانين فى حبك، صح؟ ربما لم تكونى بالمرأة التى تسر الناظرين، لكنك كنت دائمًا ذكية".

قلت إننى أفضل الإجابات المباشرة، لكن بالطبع لا يحب أحد هذه الإجابات، خاصة لو كانت إجابات لا تنطوى على أى إطراء.

قلت ببرود: "شكرًا لك على صراحتك. لا بد أنك ارتحت عندما كشفت عن مشاعرك الحقيقية ولو مرة واحدة. يمكنك أن تعيد سهمك إلى مكانه الآن. الحقيقة أننى أشعر بدفقة من السرور كلما رأيته منغرسًا فى رقبتك الكاذبة الشرهة".

لم يظهر الخُطاب على الساحة على الفور. على مدار أول تسع أو عشر سنوات من غياب أوديسيوس، كنا نعرف أين هو.. كان فى طروادة.. وكنا نعرف أنه حى يُرزق. لا، لم يبادروا بحصار القصر إلا بعد أن أفل الأمل وراح ينطفئ. فى البداية جاء خمسة، ثم عشرة، ثم خمسون.. كلما زاد العدد زاد تكالب الآخرين، وكل منهم يخشى أن تفوته المآدب الأبدية و(لوتارى) الزواج. كانوا كالصقور عندما ترى بقرة ميتة. ينزل صقرٌ ثم آخر، حتى تجد كل صقر متواجد على مسافة أميال على الجثة يمزق عنها لحمها.

كانوا يظهرون كل يوم عند القصر ويعلنون أنهم ضيوفى، ويفرضون علىّ دور المضيفة. ومع استغلالهم لضعفى ونقص القوة البشرية عندى، قاموا بأنفسهم بذبح ماشيتنا وشيها بمساعدة خدمهم، وراحوا يأمرون الخادمات ويقرصهن أردافهن وكأنهم فى بيوتهم. كان كمّ الطعام الذى يستهلكونه مذهلاً.. كانوا يأكلون وكأن أجسادهم خاوية حتى الساقين، تستوعب كل هذه الكميات. كل منهم يأكل وكأنه ينافس الآخرين فى الأكل، وهدفهم هو تحطيم مقاومتى بتهديدى بالموت جوعًا، وهكذا راحت جبال اللحم والخبز وأنهار النبيذ تختفى فى حلوقهم وكأن الأرض انفتحت وابتلعت كل شىء. قالوا إنهم سيستمرون على هذا المنوال حتى أختار منهم زوجًا، فتخللت حفلاتهم الثملة الخُطب البلهاء عن جمالى الأخاذ وتميزى على الأخريات وحكمتى البالغة.

لن أتظاهر بأننى لم أستمتع بقدر من هذه الأمور. الكل مثلى فى هذا.. نحن جميعًا نحب سماع أناشيد الغزل، حتى إن كنا لا نصدقها. لكن حاولت أن أنظر إلى أسطواناتهم المشروخة كما أنظر إلى فقرة المهرج. ترى ما قواعد البلاغة التى سيستخدمونها الآن؟ من منهم سيتظاهر - بشكل مقنع - بأنه فقد رشده من النظر إلى وجهى؟ من الحين للآخر أطل عليهم فى البهو حيث يأكلون، ومعى خادمتان، لأراقبهم وهم يبالغون ويبالغون ببلاهة. عادة ما يربح أمفينوموس فى رأيى من واقع الأسلوب المهذب، رغم أنه كان بعيداً كل البُعد عن المبالغة فى الغزل. لا بد أن أعترف أننى كنت أحلم بعض أحلام اليقظة من الحين للآخر عن من منهم سأنام معه، إذا وصلت الأمور إلى هذا الحد.

بعد ذلك، قالت لى الخادمات النميمة التى يتبادلها الخُطاب من وراء ظهرى. كانت الخادمات جميعًا مستعدات بطبيعة الحال للتسمع، إذ كن مجبرات على الخدمة وتقديم اللحم والشرب.

ماذا قال الخُطاب عنى فيما بينهم؟ ها هى بعض الأمثلة: الجائزة الأولى، أسبوع فى سرير بينيلوب، الجائزة الثانية، أسبوعان فى سرير بينيلوب. أغمض عينيك تجدهن جميعًا سواء - تخيلها هيلين يا أخى، وسوف تجد حربتك مطهمة بالبرونز، هاها! متى ستقرر تلك القحبة وتخلصنا؟ دعونا نقتل الابن، نزيحه عن طريقنا وهو ما زال صغيرًا.. ابن الحرام هذا بدأ يضايقنى. ما الذى يمنعنا من أن يمسك أحدنا بتلك البقرة العجوز وينام معها؟ لا يا رجال، هذا غش. تعرفون الاتفاق. أيًا كان من سينال الجائزة عليه أن يقدم هدايا محترمة للآخرين، اتفقنا على هذا، صحيح؟ نحن فى هذا الموضوع معًا، ننتصر أو نموت. النصر أو الموت، لأن من سينتصر عليه أن ينكحها حتى تموت، ها ها ها.

أحيانًا كنت أتساءل إن كانت الخادمات يختلقن بعض هذا الكلام، لرفع المعنويات، أو لإغاظتى. بدا عليهن السرور وهن يبلغننى بما يحملن من كلام، لا سيما عندما تنهمر دموعى وأدعو لأثينا ذات العينين الزبرجديتين إما أن تُعيد أوديسيوس أو تُنهى معاناتى. ثم إنهن قد تنهمر دموعهن أيضًا، ويبكين ويبكين، ويجلبن لى مشروبات مريحة؛ فالبكاء مريح لأعصابهن.

يوريكليا كانت ذات همة عالية بشكل استثنائى فى موافاتى بتقارير النميمة، سواء كانت صحيحة أو مختلقة: الأرجح أنها كانت تحاول أن تقسى قلبى على الخطاب ومناشداتهم الحماسية، حتى أبقى مخلصة لآخر نفس فىّ. لطالما كانت أكبر معجبات أوديسيوس.

* * *

ماذا أفعل لأردع هؤلاء الشبان البلطجية الأرستقراطيين؟ كانوا فى عمر الخيلاء، من ثم فكل المناشدات لكرمهم ومحاولات الكلام معهم بشكل منطقى والتهديدات بالانتقام، لم تجد نفعًا. لم يتراجع أحد منهم خشية أن يزايد عليه الآخرون ويقولون: إنه جبان. الشكوى لآبائهم لم تجد نفعًا: أسرهم على أهبة الاستعداد للتربح من سلوكهم هذا. وكان تليماخوس صغيرًا على أن يعارضهم، وعلى كل حال كان وحده وهم مائة واثنا عشر، أو مائة وثمانية، أو مائة وعشرون ـ كان من الصعب التأكد من العدد باستمرار، فهم كثيرون. الرجال الذين ربما كانوا مخلصين لأوديسيوس أبحروا معه إلى طروادة، وأى ممن تبقى منهم وربما كان إلى جانبى، أرهبته قوة هذا العدد الكبير، وخشى المجاهرة بالرفض لما يحدث.

كنت أعرف أن لا فائدة من طرد خطابى غير المرغوبين، أو أن أغلق أبواب القصر دونهم. إذا حاولت، فسوف يحدث ما لا تحمد عقباه، وسيأخذون بالقوة ما يحاولون ربحه بالإقناع. لكننى ابنة حورية ماء. أتذكر نصيحة أمى لى: كونى كالماء.. هكذا رحت أقول لنفسى: لا تحاولى معارضتهم. عندما يحاولون إمساكك، تسربى من بين أصابعهم. تدفقى حولها.

لهذا السبب تظاهرات بأننى أنظر بعين الرضا إلى إغراءاتهم، نظريًا على الأقل، بل إننى تماديت لدرجة تشجيعهم واحدًا تلو الآخر، ورحت أرسل إليهم خطابات سرية. لكن قلت لهم إننى قبل أن أختار منهم، لا بد أن أقتنع تمام الاقتناع ويدخل فى يقينى أن أوديسيوس لن يعود أبدًا.

ـ ١٥ ـ

الكفن

شهرًا وراء شهر زادت الضغوط علىّ. أمضيت أيامًا بأكملها فى حجرتى ليس فى الحجرة التى كنت أشارك أوديسيوس فيها، لا، لم أتحمل هذا، لكن فى حجرة خاصة بى فى ركن النساء. كنت أرقد على السرير وأبكى، وأتساءل ماذا عساى أفعل. بالطبع لم أرغب فى الزواج بأى من هؤلاء الجراء الصغار عديمى الذوق. لكن ابنى تليماخوس بدأ يكبر، وهو تقريبًا يناهز الخطاب فى السن، وبدأ ينظر لى بطريقة غريبة، ويحملنى مسئولية أن ميراثه قد التهم بالمعنى الحرفى للكلمة.

كم كان من الأيسر بالنسبة له أن أحزم متاعى وأذهب لأبى، الملك إيكاريوس فى إسبرطة. وكانت احتمالات قيامى بهذا من واقع إرادتى الحرة منعدمة: فأنا لا أعتزم النزول إلى البحر مرة ثانية. تليماخوس فى البداية تخيل أن عودتى إلى قصر أبى ستؤدى إلى نتيجة جيدة، من وجهة نظره، لكن بعد أن أعاد التفكير ـ وأعاد

حساب حساباته - أدرك أن أغلب الذهب والفضة فى القصر سيعود إلى ذلك القصر الآخر معى، بما أنها كانت مهرى. وإذا مكثت فى إيثاكا وتزوجت أحد هؤلاء الجراء النبيلة، فسوف يصبح هذا الجرو ملكًا، وزوجًا لأمه، وستكون له سلطة عليه. أن يأمره فتى فى عمره فكرة لم يستوعبها.

الحق أن أفضل حل له هو موتى ميتة كريمة، ميتة لا يلومه أحد عليها. فإذا فعل مثلما فعل أوريستيس (*)دون سبب، على عكس أوريستيس وقتل أمه، فسوف يجلب على نفسه ربات الانتقام مرهوبات الجانب، ذوات الشعر الثعبانى ورؤوس الكلاب وأجنحة الوطاويط - وسوف يطاردنه بنباحهن وهسيسهن وسياطهن ويضربنه حتى يجن جنونه. وبما أنه كان ليقتلنى بدم بارد، ومن واقع أسفل الدوافع - وهو حيازة الثروة - فسوف يكون من المستحيل عليه أن يتطهر فى أى معبد، وسوف يلوث بدمى حتى يموت ميتة بشعة فى حالة من الجنون المطبق.

حياة الأم مقدسة، حتى حياة الأم سيئة السمعة مقدسة، وانظروا مثلاً إلى ابنة عمى كليتمنسترا الزانية التى ذبحت زوجها وعذبت أطفالها.. ولم يقل أحد إننى أم سيئة السلوك. لكننى قطعًا

(*) أوريستيس هو ابن الملك أجاممنون والملكة كليتمنسترا. عند هوميروس فى الأوديسة، كان أوريستيس غائبًا عن الديار وقت أن عاد أبوه أجاممنون من حرب طروادة ومعه الطروادية كاسندرا عشيقة له، ومن ثم لم يحضر مقتل والده علي يد أمه كليتمنسترا، انتقامًا منه علي تضحيته بابنتهما إفيجينيا قربانًا للآلهة حتى تكون رياح البحر في صالح سفن الإغريق فى الطريق إلى طروادة. بعد سبع سنوات عاد أوريستيس من أثينا، ومع شقيقته إلكترا انتقم لموت والده بأن ذبح أمه وعشيقها. فى الأوديسة يري تليمخاوس في أوريستيس نموذجًا فاضلاً، إذ كانت أمه بينيلوب يلاحقها الخطاب. (المترجم).

لم أعجب بكلمات اللوم المقتضبة والنظرات الحاقدة التى كنت ألقاها من ابنى.

عندما بدأ الخطاب جملتهم، ذكرتهم بأن عرافة قالت إن أوديسيوس حتمًا سيعود، لكنه لم يظهر، عامًا بعد عام، فبدأت الثقة فى كلمات العرافة تذبل. وقال الخطاب إن العرافة ربما أخطأت التعبير عن النبوءة.. فالعرافات معروفات بالغموض والالتباس. حتى بدأت أنا أشك، وفى النهاية وافقت - على الأقل علنًا - على أن أوديسيوس مات على الأرجح. لكن لم يظهر شبحه لى فى أى حلم، كما هو مألوف. لم أتخيل أنه لم يبعث لى بأى خبر عنه من هيدز، إن كان قد وصل إلى أرض الموتى والأطياف تلك.

رحت أحاول التفكير فى طريقة لتأجيل يوم اتخاذ القرار، دون أن ألوم نفسى. أخيرًا خطرت لى خطة. عندما رحت أروى الحكاية فيما بعد، كنت أقول إن الربة بالاس أثينا، ربة الغزل، هى التى أرسلت لى الفكرة، وربما كان هذا حقيقيًا، على حد علمى، لكن إعادة الفضل فى الأفكار الملهمة التى تخطر للمرء طريقة جيدة دائماً لتفادى اتهامات الفخر والخيلاء إذا نجحت الخطة، وتفادى اللوم إن لم تنجح.

فعلت التالى: جهزت قطعة كبيرة من الغزل على منسجى، وقلت إنها كفن لحماى، لايرتس، بما أننى سأصبح عاقة إن لم أوفر له تلك الملاءة الغالية فى حال مات. لكن حتى ينتهى هذا العمل المقدس فلا يمكننى التفكير فى اختيار زوجى الجديد، لكن ما إن ينتهى، فسوف أسارع باختيار ذلك الرجل المحظوظ.

(لم يسر لايرتس كثيرًا بهذه الفكرة.. بعد أن سمع بها ابتعد عن القصر أكثر من أى وقت. ماذا لو سارع أحد الخُطاب الملهوفين إلى

إنهاء حياته، مجبرًا إياى على دفن لايرتس فى الكفن سواء كان قد انتهى العمل فيه أو لم ينته، مما يعنى التعجيل بزفافى؟)

لم يقدر أحد منهم على معارضتى فى هذه المهمة، إذ كانت تنطوى على قدر كبير من التقوى. طوال اليوم أعمل على منسجى، أغزل بهمة، وأردد كلمات فيها قدر كبير من السخرية المخلوطة بالحسرة، مثل: "هذا الكفن يليق بى أكثر من لايرتس، وأنا تعيسة هكذا، وقد وضعتنى الآلهة فى حياة هى الموت حية". لكن فى الليل أقوم بفك ما أنجزته، فلا يكبر الكفن أبدًا.

لمساعدتى فى هذه المهمة الشاقة اخترت اثنتى عشرة خادمة من خادماتى.. هن الأصغر سنًا، بما أنهن من مكثن معى طيلة حياتهن. اشتريتهن وحصلت عليهن وهن فى سن الطفولة، وربيتهن وكأنهن رفيقات لعب لتليماخوس، ودربتهن بعناية على كل شىء يحتجن معرفته فى القصر. كن فتيات عذبات، ممتلئات بالطاقة، وكن صاخبات قليلاً ويملن إلى الضحك دون سبب، كحال كل الخادمات فى سن الشباب، لكن أبهجنى كثيرًا سماع ثرثرتهن، والاستماع إلى غنائهن. أصواتهن جميلة، جميعًا، وتعلمن جيدًا كيف يستخدمن هذه الأصوات.

كُن أعينى وآذانى الأهم فى القصر، وهن من قمن بمساعدتى فى فك الغزل، وراء الأبواب المغلقة، فى عتمة الليل، على ضوء المشاعل، لأكثر من ثلاث سنوات. ورغم أننا كنا مضطرات لعمل هذا الأمر فى حرص والحديث همسًا، فقد كانت تلك الليالى مسًا من الفرحة المحيطة بهن، لمسة من المرح. ميلانتو جميلة الوجنتين راحت تُهرِّب ما لذ وطاب من أكل لنأكله.. التين فى موسمه والخبز المغموس بخلايا عسل النحل والنبيذ الساخن فى الشتاء. كنا نحكى حكايات ونحن نعمل فى مهمتنا التدميرية، وتطلع إحدانا الأخرى على الألغاز ونؤلف النكات. على ضوء المشاعل الخابى تنعم وترق

وجوهنا النهارية وتتغير، ويتغير معها سلوكنا النهارى. وكأننا شقيقات. فى الصباحات تصبح عيوننا مسودة من قلة النوم، فنتبادل ابتسامات التواطؤ والتآمر، ونتبادل هنا وهناك قرصة صغيرة على اليد. وتحلق "حاضر سيدتى" و"لا يا سيدتى" على حواف ضحكة، وكأننى لا أنا ولا هن قادرات على أخذ سلوكهن "الخدمى" على محمل الجد.

لسوء الطالع خانت إحداهن سر عملية الغزل الأبدية التى اخترعتها. أنا واثقة أن هذا حدث بطريق الخطأ. الصغار متهورون، ولا بد أنها كشفت عن كلمة أو أخرى فضحت الحقيقة. ما زلت لا أعرف من منهن فعلت هذا.. هنا وسط الأطياف يتحركن فى جماعة، وعندما أقترب منهن يركضن مبتعدات. يعزلن أنفسهن عنى وكأننى جرحتهن جرحًا لا يندمل. لكن ما كنت لأسىء إليهن قط، ليس بشكل متعمد.

الحق أن انكشاف سرى كان خطئى دون غيرى. قلت لخادماتى الاثنتى عشرة الشابات ـ الأجمل والأمكر ـ أن يتحركن حول الخطاب للتجسس عليهم، باستخدام أى فنون خداعية يقدرن على ابتكارها. لم يعرف أحد بأوامرى إلا أنا والخادمات المعنيات.. لم أكشف عن السر ليوريكليا، وهو خطأ جسيم اكتشفته لاحقًا.

اتخذت هذه الخطة منحى مأساويًا. تعرضت عدة فتيات منهن للاغتصاب للأسف، وتم إغراء بعضهن، أو ضُغط عليهن وقررن أن الاستسلام أفضل من المقاومة.

لم يكن من عجائب الأمور أن ينام الضيوف فى قصر أو بيت كبير مع الخادمات. يعتبر توفير تسلية ليلية جزءًا من كرم الضيافة، فكان المضيف يعرض على ضيوفه اختيار الفتيات.. لكن كان من

غير المألوف أن تلجأ الخادمات إلى هذا السلوك دون إذن صاحب البيت؛ فهذا العمل يرقى لكونه سرقة.

إلا أنه لم يكن ثمة رب للبيت، فبادر الخطاب بأنفسهم بالتودد إلى الخادمات بنفس طريقة توددهم إلى الخراف والخنازير والعنزات والبقرات. ربما لم يفكروا مرتين فى الأمر.

وقمت أنا بالتخفيف عن الفتيات بأقصى ما أمكننى. كن يشعرن بذنب كبير، وكانت من تعرضت منهن للاغتصاب بحاجة للرعاية والاهتمام. كلفت يوريكليا بهذه المهمة، التى راحت تلعن الخطاب الأشرار، وساعدت الفتيات على الاغتسال، وحكتهن بزيت الزيتون المعطر الخاص بى على سبيل المعاملة الطيبة الاستثنائية. امتعضت قليلاً من هذا الأمر. ربما كانت حاقدة على حبى للفتيات. قالت لى إننى أدللهن، وأنهن سوف يفكرن فى أفكار أعلى منهن كخادمات.

قلت لهن: "لا عليكن. لا بد أن تتظاهرن بأنكن واقعات فى حب هؤلاء الرجال. إذا ظنوا أنكن إلى جانبهم، فسوف يكشفن لكن عن الأسرار وسوف تعرفن خططهم. هذه من أساليب خدمة سيدكم، وسوف يسر كثيراً بكن عندما يعود".. رفع هذا الكلام من روحهن المعنوية.

بل إننى أمرتهن أيضًا بقول أشياء وقحة وغير محترمة عنى وعن تليماخوس، وعن أوديسيوس أيضًا، كى تنطلى الخدعة. دخلن هذا المشروع بإرادتهن الحرة: ميلانتو جميلة الوجنتين كانت منهمكة بشكل خاص فى الموضوع، واستمتعت كثيرًا وهى تفكر فى التعليقات الوقحة عنّا. هناك شىء باعث على السرور فى القدرة على المزج بين الطاعة والعصيان فى فعل واحد.

إلا أن هذه الخدعة لم تكن خدعة كاملة، فالعديد منهن وقعن فى حب الرجال؛ فاستغلوهن أسوأ استغلال. أعتقد أن ما حدث

كان مقدرًا وحتميًا. حسبن أننى غير قادرة على معرفة حقيقة ما يحدث، لكن كنت أعرف جيدًا. غفرت لهن رغم ذلك. كن شابات وغير خبيرات بالحياة، ولم تكن كل جارية فى إيثاكا قادرة على أن تتباهى بأنها عشيقة رجل نبيل شاب.

لكن بحب أو بدون حب، بعمليات منتصف الليل أو دونها، استمر إبلاغهن لى بمعلومات مفيدة اكتشفنها.

من ثم حسبت نفسى وبكل سذاجة حكيمة للغاية. وأنا أفكر الآن أرى أن خطتى كانت متسرعة وأدت إلى ضرر. لكن الوقت كان ينفد منى، وأصبحت يائسة، فاضطررت لاستخدام كل كارت وكل خطة فى وسعى استخدامها.

عندما اكتشفوا خدعة الكفن، اقتحم الخطاب حجرتى ليلاً وأمسكونى متلبسة بعملى. كانوا غاضبين للغاية، والسبب ليس بالضبط لأن امرأة خدعتهم، وراحوا يزعقون ويسبون ويلعنون، واتخذت أنا جانب الدفاع عن النفس. اضطررت لوعدهم بأننى سأنتهى من الكفن بأسرع ما يمكن، وبعد ذلك سوف أختار على الفور أحدهم.

الكفن نفسه أصبح حكاية فى حد ذاته على الفور. قيل عنه "شبكة بينيلوب"، وراح الناس يطلقون هذا الوصف على أى عمل غير منته لأسباب غامضة. لم يعجبنى مصطلح "شبكة". إذا كان الكفن شبكة، فأنا إذن عنكبوت. لكننى لم أكن أحاول صيد الرجال كالذباب، بل على النقيض، كنت أحاول ببساطة تفادى السقوط فى المصيدة.

ـ ١٦ ـ

كوابيس

ثم تبدأ أسوأ فترة من فترات محنتى. رحت أبكى كثيرًا حتى حسبت أننى سأتحول إلى نهر أو نافورة، كما ورد فى الحكايات القديمة. مهما دعوت وصليت وضحيت بالأضاحى وراعيت النُذر والبشارات، لم يعد زوجى. إضافة إلى تعاستى، أصبح تليماخوس فى سن بدأ معها يوجه لى الأوامر. أدير شئون القصر بنفسى تقريباً منذ اثنى عشر عاماً، لكن الآن يريد أن يؤكد سلطته كابن أوديسيوس ويريد تولى زمام الأمور. بدأ يثير المشاكل من الحين للآخر فى البهو، فيتصدى للخطاب بطريقة قد تؤدى لقتله. وكان مقدرًا له أن يتبنى مغامرة متهورة أو أخرى، كما يفعل الشباب.

بطبيعة الحال تسلل على متن سفينة وراح يتصيد الأخبار عن والده، دون حتى أن يشاورنى فى هذا الأمر. ويا لها من إهانة بالغة، لكن لم أفكر فى هذه الزاوية من رحلته، لأن خادماتى المفضلات جلبن لى الأخبار، بأن الخُطاب بعد أن عرفوا بهروب ابنى الجرىء، أرسلوا سفينة من سفنهم لتكمن فى انتظاره لقتله فى رحلة العودة.

الحق أن ميدون رسول أوديسيوس كشف لى عن هذا المخطط بدوره، كما تردد الأناشيد. لكننى كنت قد عرفت من الخادمات قبل أن أعرف منه. من ثم اضطررت لأن أرسم على وجهى الدهشة، وإلا فإن ميدون ـ الذى لم يكن منحازاً لهذا الجانب أو ذاك ـ كان ليعرف أن عندى مصدرًا مستقلاً للأخبار.

المهم، من البديهى أننى تمايلت وسقطت على الأرض ورحت أبكى وأنتحب، وكذلك فعلت جميع الخادمات ـ الاثنتى عشرة المفضلات وبقيتهن، فقد انضممن لىّ فى أدائى البكائى. لمتهن جميعاً لأنهن لم يخبرننى برحيل ابنى، ولأنهن لم يمنعنه، حتى أقرت يوريكليا تلك الدجاجة العجوز بأنها وحدها قد ساعدته وحرضته. السبب الوحيد لأنهما لم يخبرانى ـ على حد قولها ـ لأنهما لم يرغبا فى أن أجزع وأخاف. لكنها أضافت أن الأموز ستسير على ما يرام؛ لأن الآلهة عدل.

امتنعت عن قول إننى ليس عندى حتى الآن أدلة تُذكر على صحة هذه المقولة.

عندما تصبح الأحوال باعثة على اليأس والإحباط التام، وبعد أن أبذل الكثير من البكاء والنحيب دون أن أتحول إلى بركة مياه، يمكننى دائمًا أن ألجأ ـ لحسن الطالع ـ إلى النوم. وعندما أنام أحلم. زارتنى باقة كبيرة من الأحلام تلك الليلة، أحلام لم يتم تسجيلها، لأننى لم أخبر أحدًا بها قط. فى أحد الأحلام، كان رأس أوديسيوس يُحطم ومخه يأكله السيكلوب، وفى حلم آخر، كان يقفز فى الماء من على متن سفينته ويسبح نحو عرائس البحر، وكن يغنين بعذوبتهن القاتلة، مثل خادماتى، ويزيد على الغناء استعدادهن بمخالبهن مخالب الطيور لتمزيقه إربًا، وفى حلم آخر، كان يضاجع

ربة جميلة، ويستمتع بالأمر كثيرًا. ثم تحولت الربة إلى هيلين، وراحت تنظر إلىّ من خلف كتف زوجى العارى وعلى وجهها ابتسامة صفراء ساخرة شريرة. هذا الحلم الأخير كان كابوسًا مرعبًا لدرجة أننى أفقت من النوم، ورحت أدعو الآلهة أن يكون أضغاث أحلام مُرسلاً لى من كهف مورفيوس من وراء بوابة العاج، وليس حلمًا حقيقيًا مرسلاً من بوابة القرن(*).

عدت إلى نومى، وفى النهاية تمكنت من حلم مريح. هذا الحلم رويته، وربما سمعتم به. فيه أختى إفثيمى - التى كانت أكبر منى بكثير لدرجة أننى بالكاد أعرفها وقد تزوجت وابتعدت عنا - جاءت إلى حجرتى ووقفت إلى جوار سريرى، وقالت لى إنها مرسلة من أثينا نفسها، لأن الآلهة لا تريد لى المعاناة والألم. كانت رسالتها: تليماخوس سيعود فى أمان.

لكن عندما سألتها عن أوديسيوس - إن كان حيًا أو ميتًا - رفضت الإجابة وابتعدت فى صمت.

شكرًا يا آلهة لأنكم لا تريدون لى المعاناة والألم! كلامهم جميعًا ألغاز وحيرة. وكأننى كلبة ضالة يرمونها بالحجارة أو يشعلون النار فى ذيلها حتى يتسلوا. إنهم لا يتسلون بدهن وعظام الحيوانات (القرابين)، بل بمعاناتنا.

(*) بوابة العاج وبوابة القرن، صورة بلاغية ظهرت أساسًا فى الأسطورة اليونانية. فى اللغة اليونانية القديمة، كلمة «عاج» قريبة من «خداع» و «قرن» قريبة من «وفاء». من ثم تعتبر أحلام بوابة القرن رؤى حقيقية. فى الأوديسة لهوميروس قالت بينيلوب: «يا الغريب، الأحلام تأتى محيرة غير واضحة المعنى.. فهناك بوابتان للأحلام، واحدة على هيئة قرن والأخرى عاج». وقد أشار أفلاطون فيما بعد إلي هذه الصورة البلاغية فى محاورته بعنوان «شارميدس» إذ قال «سقراط: استمع إذن إلى حلمى لتقرر إن كان قد مر ببوابة القرن أو بوابة العاج» (المترجم).

ـ ١٧ ـ

الجوقة

قارب الأحلام.. أغنية راقصة

النوم هو مبعث راحتنا الوحيد
وقتها يغلفنا السلام
لا نضطر لمسح الأرض
ولا غسل الدهون عن الأواني.

لا يطاردنا الرجال في البهو
ونتعثر في التراب والطين
على يد كل نبيل أهبل
يريد نصيبه من أجسادنا.

وعندما ننام نحب الأحلام
نحلم بأننا في البحر
نبحر على الموج في قوارب ذهبية
في سعادة ونظافة وحرية.

في الأحلام كلنا جميلات
نرتدي الفساتين القرمزية البراقة
ننام مع كل رجل نحبه
ونمطره بالقبلات.

يعبئون أيامنا بالمآدب وموائد الطعام
ونملأ لياليهم بالأغاني
نأخذهم إلى قواربنا الذهبية
ونطفو ونجول على مدار عام.

الكل سعداء طيبون
لا دموع ولا ألم
لأن قراراتنا واختياراتنا رحيمة
على امتداد عهد حُكمنا وتحكمنا الذهبي.

ثم يوقظنا الصباح من النوم
ومرة أخرى نعمل عمل الجواري
ونرفع تنوراتنا بناء على أوامرهم
أوامر أي (صايع) أو محتال.

ـ ١٨ ـ

أنباء عن هيلين

تحاشى تليماخوس الكمين المنصوب له، من واقع حسن الطالع أكثر من التخطيط والاحتياط، ووصل إلى الديار فى أمان. رحبت به بدموع الفرحة، وكذلك فعلت كل الخادمات. آسفة أن أقول إننى تشاجرت يومها مع ابنى الوحيد.

قلت غاضبة: "أنت مخك مخ صرصار! كيف تجرؤ على أخذ قارب والخروج هكذا دون حتى أن تطلب الإذن؟ أنت بالكاد خرجت من سن الطفولة! ليس لديك خبرة فى قيادة سفينة! كان من الممكن أن تموت خمسين مرة، وكيف أواجه أباك بهذا عندما يعود؟ بالطبع سيكون الخطأ خطئى لأننى لم أحافظ عليك!".. إلخ.

لم يكن هذا هو الأسلوب الأمثل. نهض تليماخوس إلى حصانه العالى. أنكر أنه طفل، وزعم أنه رجل كامل الرجولة، وأنه عاد، ألم يعد؟ وأن هذا إثبات كاف على أنه يعرف ما يفعله. ثم التف حول

سلطتى الأبوية وقال إنه لا يحتاج لإذن من أحد كى يخرج فى قارب هو جزء من ميراثه، وليس هذا الجزء المتبقى من الميراث متبقيًا بفضل منى، بما أننى لم أحافظ على ميراثه وأكله الخطاب. ثم قال إنه اتخذ قراره وخرج بحثًا عن أبيه، بما أنه لا أحد كان مستعدًا لبذل أدنى جهد فى هذا الاتجاه. ذهب لأن والده كان ليفخر به لأنه أظهر رجولته ورفع عن كاهله تحكم النساء، وهن بطبيعتهن يغلبن العاطفة على العقل ولا يتخذن قرارات عقلانية.

بكلامه عن "النساء" كان يقصدنى. كيف يشير إلى أمه بصفة "النساء"؟

ماذا بوسعى سوى أن أنفجر فى البكاء؟

ثم إننى أدليت بتلك الخطبة من قبيل "أهذا - هو - كل -الشكر - الذى-أناله؟- أنت - لا - تعرف - ما - تعرضت - له - من - أجلك - ولا - يمكن - لأى - امرأة - أن - تتحمل - مثل - هذه- المعاناة، - والأفضل - لى - بعد - كلامك - أن - أنتحر. لكن خطر لى أن من الأرجح أنه سمع هذه الخطبة من قبل، وأظهر من ذراعيه المعقودتين وعينيه المرفوعتين أنه منزعج من الكلام، وأنه فى انتظار انتهائى من الكلام على مضض.

بعد ذلك استقرت بنا الحال. استحم تليماخوس بعد أن أعدت له الخادمات الحمام إعدادًا جيدًا. حككن له جسده بعناية وألبسنه ثيابًا نظيفة، ثم جلبن له عشاءً طيبًا ولبعض الأصدقاء الذين دعاهم، وهما بيريوس وثيوكليمينوس. كان بيريوس من أبناء إيثاكا، وكان شريكاً لابنى فى رحلته السرية. عقدت العزم على الكلام معه فيما بعد، وأن أتحدث إلى أبويه عن كيف يدعانه يروح ويجىء هكذا

كما يشاء. كان ثيوكليمينوس غريبًا أجنبيًا. كان لطيفًا بما يكفى، لكننى قلت لنفسى إن على البحث عن أصله وفصله، لأن الصبية فى سن تليماخوس قد يسقطون بسهولة فى حبائل أصدقاء السوء.

التهم تليماخوس الطعام وشرب النبيذ حتى الثمالة، ولمت أنا نفسى لأننى لم أعلمه آداب المائدة، رغم أننى حاولت. لكن كل مرة أصحح له سلوكه تتدخل تلك الدجاجة العجوز يوريكليا وتفرض نفسها: "على مهلك يا ابنتى، دعى الولد يستمتع بعشائه، وسوف تجدين كل الوقت لتعليمه الآداب ما إن يكبر"، وكلام فى هذا الاتجاه.

وكنت أردد: "إذا مال الغصن تطلع منه الشجرة عوجة".

فترد بنقيق الدجاج: "لا بأس إذن. لا نريد أن نميل الغصن، أليس كذلك؟ نريده أن يكبر مستقيمًا وطويلاً، رجل محترم ينفع نفسه، دون أن تبث فى الكآبة ماما جلابة النكد!"

ثم تضحك الخادمات، ويملأن طبقه بالطعام، ويقلن له كم هو ولد عظيم ورائع.

لكم يؤسفنى أنه نشأ سيئ التربية هكذا.

عندما انتهى الرجال الثلاثة من طعامهم، سألتهم عن الرحلة. هل اكتشف تليماخوس أى شىء عن أوديسيوس ومصيره ومكانه، وهو الغرض من الرحلة؟ وإن كان قد اكتشف شيئًا، فهل يمكن أن يضغط على نفسه ويشاركنى فى هذا الاكتشاف؟

لك أن تتخيل أن الأمور كانت باردة بعض الشىء من جانبى معه. من الصعب أن تخسر الأم جدالاً أمام ابنها المراهق. ما إن يصبح

أطول منك، حتى لا يبقى لك غير سطوتك الأخلاقية: وهو سلاح ضعيف على أفضل تقدير.

ما قاله تليماخوس بعد ذلك أدهشنى كثيرًا. بعد أن نزلوا على الملك نسطور، الذى لم يكن لديه شىء يقوله، ذهب لزيارة منلاوس. منلاوس بنفسه، منلاوس الثرى، منلاوس الغبى، منلاوس صاحب الصوت الجهورى، منلاوس صاحب الزوجة الغادرة، منلاوس زوج هيلين، ابنة العم هيلين، هيلين العذبة، هيلين القحبة عديمة المبادئ، سبب كل ما أنا فيه من مآس.

سألته بصوت مختنق نوعًا: "وهل رأيت هيلين؟"

قال: "أجل. قدمت لنا عشاءً طيبًا للغاية". ثم روى ما عرف عن رجل البحر العجوز، وكيف عرف منلاوس من هذا العجوز المرتاب أن أوديسيوس عالق على جزيرة لربة جميلة، حيث هو مُجبر على مضاجعتها كل ليلة، كل ليلة.

مع ما ذكره من كلام، أدركت أننى سمعت ما يكفينى من حكايات عن الربات الجميلات. سألته: "وكيف حال هيلين؟"

قال تليماخوس: "تبدو بخير. راح الجميع يحكون الحكايات عن الحرب فى طروادة.. وهى حكايات عظيمة، وعن الكثير من القتال والنضال والأمعاء المراقة من البطون على الأرض.. وقد كان أبى فى تلك الحكايات.. لكن عندما بدأ جميع المحاربين القدامى فى الثرثرة، قدمت هيلين الخمر، فغمرنا الضحك والسرور".

قلت: "لا، أخبرنى، كيف تبدو؟"

قال: "مُشعة براقة كأفروديت الذهبية. كان من بواعث السرور أن أراها. قصدى أنها ذائعة الصيت، وجزء من التاريخ وما إلى

ذلك. كانت قطعًا على قدر ما يُقال عنها وأكثر!" ابتسم ابتسامة خفرة.

قلت بأكبر قدر ممكن من الهدوء: "لا بد أن العمر تقدم بها نوعًا".. لا يمكن أن تبقى هيلين للآن جميلة ومشعة كهيلين الذهبية! هذا يتنافى مع طبيعة الدنيا"!

قال ابنى: "نعم، يعنى.. صح". ها قد عادت تلك الرابطة القوية المفترض أن تكون بين الأمهات والأبناء عديمى الآباء، فأكدت وجودها. تليماخوس ينظر فى وجهى فيقرأ تعابيره. قال: "فى الواقع بدت عجوزًا للغاية. أكبر بكثير منك. أكل عليها الدهر وشرب، وجهها ممتلئ بالتجاعيد". ثم أضاف: "وكأنها نبتة فطر ذابلة. وأسنانها مصفرة. فى الواقع سقط بعضها. الواقع أنها لم تبد جميلة إلا بعد أن شربنا كثيرًا".

كنت أعرف أنه يكذب، لكن مسنى أنه يكذب من أجلى ولأجل خاطرى. هو فى نهاية المطاف حفيد أوتولايكوس، صديق هرميس مبتكر فن الخداع، وهو أيضًا ابن أوديسيوس المراوغ صاحب الصوت المُخدِّر، فنان التزييف ومقنع الرجال ومغرى النساء. ربما عنده قدر ما من الذكاء على كل حال. قلت له: "شكرًا على كل ما أخبرتنى به يا بنى. أنا ممتنة لهذا الكلام، وسوف أذهب الآن وأقدم سلة من القمح على سبيل القربان، وأدعو من أجل عودة والدك سالمًا غانماً".

وذهبت ففعلت.

ـ ١٩ ـ

صرخة فرحة

من قال إن الصلوات والدعوات تأتى بأى أثر؟ على الجانب الآخر، من قال إنها لا تفعل؟ أتخيل الآلهة، مجتمعين على جبل الأولمب، يتمرغون فى سرور فى رحيق ورائحة العظام والدهون المحترقة، أشرار سيئون كطغمة من الأطفال ذوى السنوات العشر، يعذبون قطة مريضة، ووقت الفراغ منبسط أمامهم بلا نهاية. يسأل أحدهم الآخر: "لأى صلوات نستجيب اليوم يا ترى؟" فيرد: "لنرمى الزهر! نمنح الأمل لهذا واليأس لذاك، وبينما نحن نلعب، دعنا ندمر حياة تلك المرأة فنضاجعها على هيئة ذكر جراد البحر!". أعتقد أن الكثير من خدعهم مرجعها إحساسهم بالضجر.

بعد عشرين عامًا من دعواتى وصلواتى دون استجابة، أخيرًا تمت الاستجابة لواحدة. ما إن أديت الطقس المألوف وزرفت الدموع المعتادة، حتى دخل أوديسيوس بخطواته الثقيلة إلى فناء القصر.

الخطوات الثقيلة المُرهقة جزء من خطة الخداع، بطبيعة الحال. ما كنت لأتوقع منه أقل من ذلك. يبدو أنه يريد تقييم الوضع فى القصر: الخطاب وتضييعهم لضياعه وثروته، ونواياهم القاتلة نحو تليماخوس، واستخدامهم الخدمات الجنسية لخادماته، واعتزامهم اختطاف زوجته، وبعد التقييم انتهى بكل حكمة إلى أن عليه ألا يدخل ببساطة إلى وسط الجمع معلنًا أنه أوديسيوس فيطلب منهم إخلاء القصر. إذا حاول ذلك، كان ليصبح رجلاً ميتًا فى ظرف دقائق.

من ثم ارتدى ثياب متسول عجوز. كان يعول على حقيقة أن أغلب الخطاب لا يعرفون شكله، فقد كانوا صغارًا يانعين، أو لم يولدوا حتى، عندما خرج فى سفنه. كان تنكره جيدًا بما يكفى - كنت آمل أن تكون التجاعيد والصلعة جزءًا من التنكر وليست حقيقية - لكن ما إن رأيت ذلك الصدر العريض وتلك الأقدام القصيرة حتى ثارت شكوكى، وأصبحت يقينًا عندما سمعت أنه كسر رقبة زميل له فى التسول أراد منافسته على المكان. كان هذا أسلوبه: التسلل والخداع عند الضرورة، إن كان ليس ضد الهجمات المباشرة عندما يكون واثقًا من الفوز.

لم أعلن عن معرفتى بحقيقته. فهذا أمر ذو خطورة عليه. كما أنه إذا كان ثمة رجل فخور بقدراته على التنكر، فهى زوجة غبية إذن تلك التى ستعلن عن معرفتها حقيقته. من التهور دائمًا التدخل بين الرجل وانعكاس مجال مهارته الذى يعتد به فى المرآة.

شارك تليماخوس فى الخدعة.. إذ رأيت هذا على الفور. كان بطبيعته ماهرًا فى غزل الأكاذيب كوالده، لكن لم يكن قد أتقن تمام

الإتقان أداء هذا الدور بعد. عندما قدّم لى الشحاذ المذكور، أدركت أنه متواطئ، من نظراته الجانبية وتلعثمه فى الكلام.

لم يحدث هذا التقديم إلا لاحقًا. أمضى أوديسيوس ساعاته الأولى فى القصر متسللاً هنا وهناك متعرضًا لإهانات الخطاب، الذين راحوا يعنفونه ويرمونه بالأشياء. لسوء الطالع لم أتمكن من إخبار خادماتى الاثنتى عشرة من يكون، حتى تستمر وقاحتهن مع تليماخوس، وينضممن إلى الخطاب فى إهاناتهم. ميلانتو جميلة الوجنتين ـ كما قيل لى ـ كانت حادة بشكل خاص فى إهاناتها. عقدت العزم على توضيح الحقيقة عندما يحين الوقت المناسب، وأن أقول لأوديسيوس إن هؤلاء الفتيات يعملن بأوامر منى.

عندما حل المساء رتبت لمقابلة الشحاذ فى البهو الذى أصبح خاليًا. زعم أن عنده أنباءً عن أوديسيوس، وروى لى رواية قابلة للتصديق، فأكد أن أوديسيوس سيعود إلى دياره قريبًا، فزرفت أنا الدمع وقلت إننى أخشى أن الحقيقة ليست كذلك، فقد دأب المسافرون على قول نفس الشىء على مدار سنوات وسنوات. ورحت أصف معاناتى باستفاضة، واشتياقى إلى زوجى.. فالأفضل أن يسمع هذا الكلام وهو متنكر على هيئة متسول؛ حتى تزيد فرص تصديقه للكلام.

ثم أثنيت عليه فطلبت منه المشورة. قلت إننى عاقدة العزم على إخراج قوس أوديسيوس العظيم، ذلك القوس الذى أطلق منه سهمًا مرق من مقابض الفؤوس الاثنى عشر ذات الأطراف الدائرية ـ وهو إنجاز مذهل ـ وأن أتحدى الخُطاب أن يكرروا فعلته، وأن أعرض عليهم نفسى على سبيل الجائزة لهذا التحدى. فهذا خليق بأن يضع

نهاية بطريقة أو أخرى لهذا الموقف غير المحتمل الذى علقت فيه. وطلبت منه رأيه فى هذه الخطة.

قال إنها فكرة ممتازة.

تزعم الأناشيد أن وصول أوديسيوس وقرارى الخاص باختبار القوس والفؤوس تزامنا بالصدفة - أو بموجب خطة إلهية، وكانت هذه طريقتنا فى التعبير عن فكرة الصدفة فى زمننا. الآن ستسمعون القصة الحقيقية. كنت أعرف أن أوديسيوس وحده هو القادر على أداء خدعة القوس والسهم الصعبة هذه. كنت أعرف أن المتسول هو أوديسيوس. لا صدف هنالك إذن. وضعت الخطة عن عمد.

مع زيادة ثقتى فى هذا الفخ الماكر المزمع، رويت أحد أحلامى. كان بشأن سربى الجميل من الإوز الأبيض، إوز أنا فخورة به للغاية. حلمت أن الإوز كان يرعى فى الفناء ثم حط عليه نسر عملاق معقوف المنقار فقتل الإوز جميعاً، فرحت أبكى وأبكى.

فسَّر أوديسيوس المتسول هذا الحلم كالتالى: النسر هو زوجى، والإوز هو الخطاب، وأن أحد الطرفين سيقتل الآخر قريبًا. لم يذكر شيئًا عن المنقار المعقوف للنسر، أو عن حبى للإوز وحزنى على مقتله.

كان أوديسيوس مخطئًا بشأن الحلم. كان قطعًا هو النسر، لكن الإوز لم يكن الخطاب. الإوز هو الخادمات الاثنتا عشرة، كما عرفت بعد ذلك بقليل وأنا غارقة فى حزن لا نهاية له.

هناك تفصيلة يرددونها كثيرًا فى الأناشيد. أمرت الخادمات بغسل قدمى أوديسيوس المتسول لكنه رفض وقال إنه لن يسمح

لأحد بغسل قدميه إلا لو كان لا يحتقره لأنه عجوز فقير. ثم عرضت المهمة على يوريكليا، وقدماها ناقصتا الجمال كقدر نقص جمال قدميه. قامت متذمرة إلى المهمة، وهى لا تدرك طبيعة الفخ الذى نصبته لها. سرعان ما اكتشفت الندبة التى تعرفها من مرات كثيرة لا تعد ولا تحصى، أدت فيها نفس الخدمة لأوديسيوس. فى تلك اللحظة ندت عنها صرخة فرحة فسكبت الماء كله على الأرض، وكاد أوديسيوس يخنقها حتى يمنعها من كشف سره.

تقول الأناشيد إننى لم ألاحظ شيئًا لأن أثينا شتتت انتباهى عن إدراك الحقيقة. إن كنتم تصدقون هذا الكلام، فأنتم مستعدون لتصديق أى هراء من أى نوع. فى الواقع، أدرت ظهرى لهما حتى أخفى ضحكتى الصامتة على نجاح مفاجأتى الصغيرة.

ـ ٢٠ ـ

نميمة فضائحية

فى هذا الموضع، أشعر أن علىّ التصدى لمختلف أصناف النميمة الفضائحية القائمة على مدار السنوات الألفين أو الثلاثة آلاف الأخيرة. هناك حكايات غير صحيحة على الإطلاق. الكثيرون قالوا إنه لا دخان بلا نار، لكن هذه حجة عقيمة. سمعنا جميعًا شائعات ثبت فيما بعد أن لا أساس لها من الصحة، وكذلك الأمر بالنسبة لتلك الشائعات المحاكة حولى.

الاتهامات المذكورة متعلقة بسلوكى الجنسى. يُزعم على سبيل المثال إننى نمت مع أمفينوموس، أكثر الخطاب تهذيبًا، أو الأكثر تهذيبًا من البقية. تقول الأغانى إننى وجدت الحديث معه لطيفًا أو أكثر لطفًا من الحديث مع الآخرين، وهذا حقيقى، لكنها قفزة كبيرة بين الحديث اللطيف والسرير. كما أن من الحقيقى أننى خادعت الخطاب وسايرتهم وقدمت لبعضهم وعودًا على انفراد، لكن هذه

مسألة سياسة عمل بحتة. من بين أغراض أخرى، استخدمت تشجيعى لهم المفترض هذا لانتزاع هدايا قيمة منهم - وهى ثمن قليل لكل شىء أكلوه وضيعوه - وأريد لفت انتباهكم إلى أن أوديسيوس نفسه شهد على أعمالى ووافق عليها.

النسخ الأكثر إثارة للغضب من هذا الكلام تؤكد أننى نمت مع جميع الخطاب، واحدًا تلو الآخر، أكثر من مائة خطيب، ثم ولدت الرب العظيم بان. من يصدق حكاية خرفاء كهذه؟ بعض الأناشيد لا تستحق الأنفاس المنفقة عليها.

هناك معلقون كثيرون اقتبسوا من أقوال حماتى أنتيكليا، التى لم تقل شيئاً عن الخطاب عندما تحدث أوديسيوس إلى روحها على جزيرة الموتى. صمتها يؤخذ على محمل أنه إثبات: إذا كانت قد ذكرت الخطاب من الأساس، على حد قولهم، كانت لتذكر خيانتى معهم كذلك. ربما كانت تريد زرع بذرة سامة فى عقل أوديسيوس، لكنكم تعرفون بالفعل سلوكها تجاهى. ربما هذه لمستها السامة الأخيرة.

أشار آخرون إلى حقيقة أننى لم أصرف أو أعاقب الخادمات الاثنتى عشرة، أو أننى لم أعزلهن فى مبنى خارجى لطحن الذرة، من ثم يؤكدون أننى كنت أشارك فى هذا السلوك المشين بنفسى. لكننى أوضحت حقيقة هذا الأمر بالفعل.

هناك تهمة أكثر خطورة، هى أن أوديسيوس لم يكشف لى عن نفسه عندما عاد فى البداية. يقولون إنه كان لا يثق بى، وأراد أن يتأكد أولاً من أننى لا أمارس حفلات الجنس الجماعى فى القصر. لكن السبب الحقيقى هو أنه كان يخشى أن أبكى دموع الفرحة

فأكشف حقيقته. بالمثل، قام بحبسى فى جناح النساء مع باقى النساء أثناء ذبحه للخُطاب، واعتمد على مساعدة يوريكليا، وليس على مساعدتى. لكنه كان يعرفنى جيدًا، يعرف قلبى الضعيف وكيف أننى أبكى سريعًا وأفقد الوعى بسهولة. هو ببساطة لم يرغب فى تعريضى لأخطار ومناظر مزعجة. بالطبع هذا هو التفسير الواضح لسلوكه معى.

إذا كان زوجى قد سمع بالشائعات على مدار حياتنا، فمن المؤكد أنه كان ليقطع بعض الألسنة. لكن لا فائدة الآن من التحسر على هذه الفرص المهدرة.

ـ ٢١ ـ

الجوقة

مخاطر بينيلوب.. دراما

تقدمها: الخادمات

مدخل: على لسان ميلانتو جميلة الوجنتين:

ونحن نقترب من عقدة الرواية، الكئيبة الملطخة بالدماء،

دعونا نقول ببساطة: هناك قصة أخرى.

أو عدة قصص، كما يليق برية الشائعات،

التي تتمتع أحيانًا بحس دعابة عال،

أو حس سيئ أحيانًا أخرى.

قيل إن بينيلوب المتعففة

كانت في مسألة الجنس

ليست بالمتخاذلة المترفعة!

قال البعض إنها كانت تنام

مع أمفينوموس

تغطي على شبقها برياح عاتية من العويل

والنحيب

وآخرون قالوا إن كلاً من الخطاب المتسابقين عليها

أتيحت له ـ كل في دوره ـ فرصة قلبها على السرير،

وأن من واقع هذه الأعمال اللاأخلاقية

وُلد رب الماعز بان

أو هكذا تقول الحكاية.

الحقيقة، أعزائي المشاهدين، نادرًا ما تكون مؤكدة

لكن دعونا ننظر وراء الكواليس!

يوريكليا: تؤدي خادمة دورها:

طفلتي العزيزة! أخشى عليك الهلاك!

فقد عاد السيد! حقاً، لقد عاد!

بينيلوب: تؤدي خادمة دورها:

عرفته من على بعد وهو يتقرب من هنا

من قدميه القصيرتين..

يوريكليا:

ومن ندبته الطويلة!

بينيلوب:

والآن أي ربيبتنا العزيزة، سبق السيف العزل..

سوف يقطعني إربًا لأنني راعيت رغبتي!

بينما كان هو يمتع كل حورية وكل امرأة جميلة،

هل تخيل أنني لن أفعل شيئًا سوى أداء واجبي؟

بينما هو يغازل كل فتاة وربة في طريقه،

هل افترض أنني سأذبل كالزبيب؟

يوريكليا:

بينما قيل إن منسجك الشهير راح يغزل الخيوط،

في واقع الأمر كنت مشغولة بالسرير!

وهذا سبب كافٍ لـ...

قطع رأسك!

بينيلوب:

أمفينوموس.. هلم! اصعد درجات السلم الخفية!
وسوف أجلس أنا هنا، أصطنع الأحزان والحنين.
أعدل وضع ثوبي! وأربط شعري اللعوب!
قولي لي مَن مِن الخادمات تعرف بأمري؟

يوريكليا:
الاثنتا عشرة فقط يا سيدتي، من ساعدنك،
هن فقط يعرفن بأنك لم تقاومي الخُطاب
هربن عشاقك فأدخلونهم وأخرجنهم كل ليلة
غطينك بالستائر ثم رفعن لك المصباح
ويعرفن بكل فعلة وكل حركة أتيتها في الحرام
لابد من إسكاتهن، وإلا انتهى كل شيء!

بينيلوب:
هيا إذن يا الربيبة العزيزة، الأمر أمرك
في أن تنقذيني، وتنقذي شرف أوديسيوس أيضًا!
لأنه رضع من ثدييك الذين عفا عليهما الزمن،
فأنت الوحيدة بيننا التي يثق فيها.
قولي له عن هؤلاء الخادمات إنهن مخادعات خائنات،

أخذهن الخُطاب غنائم حرامًا،

ملوثات، مكللات بالعار، ولسن أهلاً لأن يكنّ

جاريات سيد عظيم مثله!

يوريكليا:.

سوف نُسكت أفواههن بإرسالهن إلى هيدز..

سوف يسلسلهن ويعاملهن معاملة الشريرات الوضيعات!

بينيلوب:

وسوف أبقى أنا نموذجًا للزوجة العظيمة..

سوف ينظر إليّ كل الأزواج فيرونه محظوظًا!

لكن هلمي.. جاء الخطاب مقبلين على المسابقة/التحدي،

وأنا ـ من جانبي ـ لا بد أن أقوم بالتشجيع!

الجوقة، مرتدية أحذية الرقص النقري الأيرلندية:

اللوم على الخادمات إذن!

هؤلاء الساقطات الشقيات!

اشنقوهن عاليًا ولا تسألوا لماذا..

فالذنب ذنب الخادمات!

الذنب ذنب الخادمات!

لعبة كل سافل وكل مارق

دعوهن يعلقن، دعوهن يختنقن..

الذنب ذنب الخادمات!

الذنب ذنب السافلات!

هؤلاء الصغيرات القصيرات العاهرات!

ها هي الآثار على كل تنورة وكل قطعة ثياب..

الذنب ذنب السافلات!

الكل ينحني للجمهور.

ـ ٢٢ ـ

هيلين تستحم

كنت أسير وسط مروج الأسفوديل، أتأمل ما فات من زمن، عندما رأيت هيلين تعترض طريقى. كان وراءها ذلك القطيع المألوف من أرواح الذكور، كلهم يتكالبون عليها فى تشوّف. لم تمنحهم نظرة واحدة، وإن كان من الواضح أنها مدركة لوجودهم. عندها دائمًا قرنا استشعار يختلجان كلما شمّا رائحة رجل.

قالت لى بسفالتها المعهودة: "أهلاً يا بطة يا ابنة عمى. أنا فى طريقى للاستحمام. هل تريدين الانضمام إلىّ؟"

قلت لها بما تمنيت أن يظهر كابتسامة: "نحن الآن أرواح يا هيلين، وليس للأرواح أجساد، وهى لا تتسخ، فلا حاجة بها إلى الاستحمام".

"لكن سبب استحمامى روحانى دائمًا".. وأضافت وهى تفتح عينيها الجميلتين على اتساعهما: "أجد الاستحمام مريحًا

للأعصاب، وسط كل هذه الاضطرابات. ليس عندك فكرة كم هو موضوع مرهق، أن يلاحقنى هذا الكم من الرجال فى كل مكان، عامًا وراء عام. الجمال الربانى عبء ثقيل. على الأقل أنت معفاة من هذا العبء!"

تجاهلت السخرية وسألتها: "هل ستخلعين عباءة روحك؟"

أجابت: "نحن جميعًا نعرف بعفتك الأسطورية يا بينيلوب. أنا واثقة أنك إذا استحممت فسوف تُبقين رداءك عليك، كما أفترض أنك كنت تفعلين هذا وأنت حية. وللأسف".. وهنا ابتسمت.. "العفة ليست من الهدايا التى خلعتها علىّ أفروديت مُحبة المرح والضحك. أفضل الاستحمام دون ردائى، حتى وأنا روح".

قلت بقدر ما من السفالة: "هذا يفسر الحشد الضخم على غير العادة من المتفرجين الذين تجذبينهم".

سألت وهى ترفع أحد حاجبيها ببراءة: "هل هو ضخم على غير العادة؟ هناك دائمًا هذا العدد من الرجال. لا أحصيهم أبدًا. أشعر أنه ولأن الكثيرين منهم ماتوا من أجلى.. بسببى.. فأنا مدينة لهم بشىء فى المقابل".

قلت: "ولو نظرة قصيرة على ما فاتهم على الأرض".

قالت هيلين: "الرغبة لا تموت مع الجسد. فقط القدرة على إشباعها هى التى تموت. لكن نظرة أو نظرتين تثيرهم، هؤلاء المساكين".

قلت: "تعطينهم سببًا للحياة".

قالت هيلين: "أنت تسخرين.. ولو تأخروا فهذا أفضل من لا إلى الأبد".

قلت: "سخريتى، أم حمامك عارى الثديين والمؤخرة كوليمة للموتى؟"

قالت هيلين: "سخريتك لاذعة لا يعجبك شىء. لمجرد أننا لم نعد، كما تعرفين، على قيد الحياة، فهذا ليس مدعاة لكل هذه السلبية. و.. لهذا الابتذال! بعضنا يحب العطاء بطبعه. بعضنا يحب الإسهام بما يقدر عليه لصالح الأقل حظاً".

قلت: "إذن أنت تغسلين يديك من دمائهم. هذا تعبير مجازى بالطبع. تعوضين كل هذه الجثث المشوهة. لم أدرك أنك قادرة على الإحساس بالذنب".

أزعجها ما قلته. كشرت فى وجهى قليلاً وقالت: "أخبرينى يا بطة يا صغيرة.. ما عدد الرجال الذين ذبحهم أوديسيوس من أجلك؟"

قلت: "كثيرون". هى تعرف العدد على وجه الدقة، ومما يسرها منذ زمن طويل أن إجمالى القتلى عندى يعتبر عدداً قليلاً للغاية مقارنة بجبال الجثث المكومة على بابها.

قالت هيلين: "المسألة متعلقة بما تعتبرينه "كثير". لكن هذا شىء لطيف. أنا واثقة أنك تشعرين بقدر أكبر من الأهمية بعد ما حدث ربما تشعرين بأنك أكثر جمالاً". ابتسمت بفمها فقط وتابعت: "أنا راحلة يا بطة يا صغيرة. وأثق أننى سأراك مرة أخرى. استمتعى بالأسفوديل". ثم راحت تسرى مبتعدة وراءها الحشد المتحمس.

ـ ٢٣ ـ

أوديسيوس وتليماخوس يذبحان الخادمات

نمت طوال تلك الأحداث الجسام. كيف فعلت هذا؟ ربما وضعت لى يوريكليا شيئًا فى المشروب المهدئ الذى أعطتنى إياه، لإبعادى عما يجرى ولمنعى من التدخل. وما كنت لأتدخل فيما جرى على كل حال.. فقد حرص أوديسيوس على إبعاد جميع النساء ووضعهن فى أمان فى جناح النساء.

وصفت يوريكليا الأمر كله لى، ولكل من يعيرها سمعه. أولاً، على حد قولها، راح أوديسيوس يراقب تليماخوس ـ وكان ما زال متنكرًا كشحاذ ـ وهو ينصب الفؤوس الاثنى عشر، ثم راح يراقب الخطاب وهم يخفقون فى ربط الوتر إلى قوسه الشهير. ثم أمسك بالقوس، وبعد أن شد إليه الوتر وأطلق منه سهمًا اخترق الفؤوس الإثنى عشر ـ مما يعنى أنه ربحنى عروسًا للمرة الثانية ـ أطلق سهمًا على أنتينوس فى رقبته، وخلع عنه تنكره، وسحق عظام كل الخُطاب، أولاً

بالسهام ثم بالحراب والسيوف. ساعده تليماخوس والراعيان المخلصان، إلا أنه كان إنجازاً عظيماً. كان مع الخطاب عدد قليل من الحراب والسيوف، حصلوا عليها من ميلانثيوس، راعى الماعز الخائن، لكن لم تجد أى من هذه الأسلحة نفعًا فى النهاية.

أخبرتنى يوريكليا كيف قامت والنساء الأخريات بالاختباء قرب باب موصد، ورحن ينصتن إلى الصياح وأصوات تكسير الأثاث، وآهات المحتضرين. ثم وصفت المشهد المرعب الذى تلا ذلك.

استدعاها أوديسيوس، وأمرها بأن تشير إلى الخادمات اللائى كُن - على حد تعبيره غير مخلصات". أجبر الفتيات على إخراج جثث الخطاب القتلى إلى الفناء، ومنها جثث عشاقهن السابقين، وبتنظيف قطع المخ والأمعاء من على الأرض، وتنظيف ما علق بالموائد والمقاعد التى ظلت سليمة لم تتكسر.

ثم - كما وصفت يوريكليا - قال لتليماخوس أن يقطع الخادمات إرباً بسيفه. لكن ابنى - إذ أراد أن يؤكد رجولته لوالده وليُظهر له أنه قادر على التجويد على الفكرة - فقد كان فى تلك السن - قام بشنقهن فى صف طويل من حبل هلب إحدى السفن.

بعد ذلك مباشرة - على حد قول يوريكليا التى لم تتمكن من إخفاء سرورها الطاغى - قطع أوديسيوس وتليماخوس أذنى وأنف ويدى ورجلى وقضيب ميلانثيوس راعى الماعز الشرير ورموها للكلاب، ولم يلتفتا لصرخات الرجل المعذب. قالت يوريكليا: "كان لا بد أن يصنعا منه عبرة لمن يعتبر، لمنع أى محاولات انشقاق فى المستقبل".

صحت أنا: "لكن أى خادمات كُن؟" وكنت قد بدأت أبكى.. "يا الآلهة العزيزة، أى خادمات شنقن؟"

قالت يوريكليا وهى متوقعة حزنى القادم: "العاشقات يا طفلتى العزيزة.. أراد قتلهن جميعًا! اضطررت لاختيار بعضهن، وإلا كُن هلكن جميعًا!".

قلت: "أى منهن؟" وأنا أحاول السيطرة على مشاعرى.

قالت: "اثنتا عشرة خادمة فقط. السافلات منهن. من كُن وقحات. من اعتدن إهانتى علنًا. ميلانتو جميلة الوجنتين وصديقاتها.. تلك المجموعة. كُن عاهرات وضيعات".

قلت: "من اغتصبن، الأصغر منهن، الأجمل". لم أُضف: كُن عينى وأذنى وسط الخطاب، عونى فى الليالى الطويلة على الكفن. إوزاتى البيضاوات بياض الثلج. عصافيرى وحماماتى.

كان هذا خطئى! لم أخبرها بخطتى.

قالت يوريكليا مدافعة عما حدث: "إذن دعيهن ينلن العقاب. ما كان يصح للملك أوديسيوس أن يسمح لهؤلاء الفتيات الوقحات بالاستمرار فى الخدمة فى القصر. ما كان يمكنه أبداً أن يغفر لهن. والآن تعالى إلى أسفل يا طفلتى العزيزة. زوجك ينتظر رؤيتك".

ماذا أفعل؟ الندم والبكاء لن يعيدا لى فتياتى الجميلات إلى قيد الحياة. عضضت على لسانى. والعجيب أنه قد تبقى لى لسان، بعد أن عضضته كثيرًا على مر السنين.

قلت لنفسى، ما مات فقد مات. سوف أدعو لهن وأقدم القرابين لأرواحهن. لكن لا بد أن أفعل هذا سرًا، وإلا اشتبه فىّ أوديسيوس بدورى.

ربما كان هناك تفسير أكثر انحرافًا. ماذا لو كانت يوريكليا تعرف باتفاقى مع الخادمات ـ بتجسسهن على الخطاب من أجلى،

بأوامرى لهن بالتصرف بشكل متمرد؟ ماذا لو كانت قد اختارتهن للقتل من واقع الحقد لاستبعادها ورغبة فى الاحتفاظ بمكانتها عند أوديسيوس؟

لم أتمكن من مواجهتها بهذا الأمر هنا. معها العشرات من الأطفال الميتين، وهى دائمًا مشغولة برعايتهم. من حسن طالعها أنهم لن يكبروا أبدًا. كلما اقتربت منها وحاولت محادثتها تقول: "فيما بعد يا طفلتى، يا ربى، أنا مشغولة، مشغولة! انظرى إلى هذا الطفل الجميل... حبيب أمه يا ناس!"

إذن لن أعرف أبدًا.

ـ ٢٤ ـ

الجوقة

محاضرة أنثروبولوجي

تقدمها: الخادمات

ما الذى يوحى به عددنا ـ عدد الخادمات ـ العدد اثنا عشر، للعقل المثقف؟ هناك اثنا عشر حواريًا، وهناك اثنا عشر يومًا للكريسماس، نعم، لكن هناك اثنا عشر شهرًا، وما الذى توحى به الكلمة "شهر" للعقل المثقف؟ نعم؟ أنت يا سيدى فى الخلف؟ صحيح! الكلمة شهر مصدرها كلمة القمر(*) كما يعرف الجميع. ليس الأمر مصادفة، ليست مصادفة بالمرة، أن عددنا اثنتا عشرة خادمة، لسنا إحدى عشرة ولا ثلاث عشرة. ولسنا ثمانى خادمات يحلبن الأبقار، كما فى الأغنية!

(*) بالإنجليزية: month شهر و moon قمر.

لأننا لم نكن مجرد خادمات. لم نكن مجرد جاريات حاقدات. لا! بالطبع كانت لنا مهمة أعلى من هذه! هل نكون إذن العذراوات الاثنتى عشرة ولسنا الخادمات الاثنتى عشرة؟ عذراوات القمر الاثنتى عشرة، رفيقات أرتيميس، عذراوات أبكار وربات القمر المُهلكات؟ هل كنا قرباناً؟ أكنا راهبات أدين دورهن أولاً بالتورط فى طقوس الخصوبة مع الخُطاب، ثم بتخليص أنفسنا بالاغتسال فى دم الضحايا المذبوحين من الذكور؟ هذه الأكوام منهم؟ يا له من شرف لربة! هل جددنا عذريتنا كما جددت أرتيميس عذريتها عندما استحمت فى الينبوع المصبوغ بدم أكتيون؟ كنا لنضحى بأنفسنا عن طيب خاطر فى هذه الحالة، كما هو مطلوب منّا، كى نمثل مرحلة غروب القمر، كى تبدأ الدورة برمتها من جديد وتسطع ربة القمر الفضية مرة أخرى. لماذا يُعزى لإفجينيا التضحية والإخلاص أكثر منّا؟

هذه القراءة للأحداث تسهل استقراء مسألة ربطنا بحبل السفينة الذى عُلقنا به مشنوقات، فالقمر الجديد هو قارب. ثم هناك القوس الظاهر بقوة فى القصة ـ قوس القمر المنحوت، قوس أرتيميس، المستخدم لإطلاق سهم عبر اثنى عشر مقبض فأس.. اثنى عشر! السهم المار من خلال مقابض الفؤوس، وهى فتحات مستديرة قمرية الشكل. ثم الشنق نفسه.. فكروا يا العقول المثقفة العزيزة، فى مغزى الشنق! فوق الأرض، فى الهواء، مربوطات إلى القارب الذى يحكمه البحر بحبل مرتبط بالقارب كالحبل السرى.. هناك الكثير من الإشارات والقرائن لا يمكنكم أن تفوتوها!

ماذا تقول يا سيدى؟ نعم أنت فى الخلف؟ نعم، صحيح، عدد الشهور القمرية هو ثلاثة عشر شهراً طبعًا، إذن لا بد أن نكون

ثلاث عشرة خادمة. من ثم وعلى حد قولك ـ بسماجة، دعنى أضيف هذا الوصف ـ نظريتنا عن أنفسها غير صحيحة؟ بما أننا اثنتا عشرة فقط. لكن انتظر.. هناك فى واقع الأمر متممة لنا، ثالثة عشرة! إنها رئيس الراهبات، تجسيد أرتيميس نفسها. إنها ليست غير.. نعم صحيح.. ليست إلا الملكة بينيلوب!

من ثم فإن اغتصابنا ثم شنقنا يرمز إلى التخلص من تقاليد عبادة القمر أموية الطابع، على يد طغمة من الهمج عُباد الرب الأب. رئيسهم ـ أوديسيوس كما هو واضح ـ سوف يزعم أن ثمة صلة قرابة تربطه بعبادتنا من خلال زواجه من رئيسة الكاهنات، وهى بينيلوب.

لا يا سيدى، نحن ننكر أن هذه نظرية نسوية فارغة لا أساس لها من الصحة. يمكن أن نفهم ترددك فى قبول خروج مثل هذه الأشياء إلى العلن ـ فالاغتصاب والقتل ليسا من الموضوعات المحببة إلى النفس ـ لكن مثل هذه الحوادث كانت تقع لا شك فى جميع أنحاء البحر المتوسط، كما يظهر من الحفريات المُستخرجة لفترة ما قبل التاريخ، مرارًا وتكرارًا.

بالطبع تلك الفؤوس ـ التى لم تستخدم كأسلحة فى المعركة التى تلت استخدامها فى المسابقة، ولم تُفسر بأى طريقة مرضية على مدار ثلاثة آلاف عام من التعليق والشروح ـ بالطبع لا بد أنها فؤوس الطقوس الدينية مزدوجة الشفرة المرتبطة بعبادة الأم العظمى فى أوساط حضارة المينويون، هى الفؤوس المستخدمة فى قطف رأس ملك العام بنهاية فترة الثلاثة عشر شهرًا قمريًا! ملك العام (الأنثى) المتمردة تستخدم قوسها لإطلاق سهم من خلال فؤوس الحياة والموت المقدسة الخاصة بها، كى تُظهر قدرتها على ذاتها! يا له من

تدنيس! تمامًا كما يفعل القضيب الذكرى عندما يُطلق من جانبه سائله عبر الـ... لكن دعنا لا نتمادى.

فى المخطط السابق على النظام الأبوى للأشياء، ربما كانت هناك مسابقة لإطلاق السهام، لكنها كانت لتتم على النحو الملائم. من يربحها يُعلن ملكًا طقوسيًا لمدة عام، ثم يتعرض للشنق، أتذكر موتيف الرجل المشنوق الذى لم يعد له ذكر الآن إلا فى ورقة التاروت تلك؟ كما يتم قطع عضوه عنه، كما يليق بذكر نحلة متزوج إلى الملكة الأم. الفعلان -الشنق وقطع العضو - يضمنان الخصوبة للمحاصيل. لكن الفتوة المغتصب أوديسيوس رفض الموت فى نهاية فترته الحقة. طماع على الحياة المديدة والسلطان، فقد وجد لنفسه بدائل. تم بالطبع قطع أعضاء ذكرية، لكنها لم تكن تخصه، بل هى خاصة بميلانثيوس راعى الماعز. تم الشنق بالفعل، لكن نحن من شنقنا، عذراوات القمر الاثنتا عشرة، نحن من قمنا بأعمال الجنس الجماعى فى قصره.

قد نستمر ونسترسل فى الكلام. هل تودون الاطلاع على رسوم على زهريات، أو بعض آثار ثقافات عبادة الربة المنحوتة؟ لا؟ لا عليكم. القصد.. لا داعى لأن تسخنوا علينا هكذا أيتها العقول المثقفة العزيزة. ليس عليكم أن ترونا فتيات حقيقيات، من لحم ودم، من ألم حقيقى وظلم حقيقى. ربما تجدون هذا المنحى فى التفكير فينا متعباً لدرجة لا تحتمل. تجاهلوا هذا الجزء الدنىء. اعتبرونا لسنا أكثر من رمز مجرد، فلسنا حقيقيات أكثر من النقود.

ـ ٢٥ ـ

قلب من حجر صوان

نزلت السلم وأنا أفكر فى خياراتى المتاحة. تظاهرت بعدم تصديق يوريكليا عندما قالت لى إن أوديسيوس هو من قتل الخُطاب. ربما هذا الرجل ليس أوديسيوس وينتحل شخصيته، كذا قلت.. كيف أعرف شكل أوديسيوس الآن؟ بعد عشرين عامًا؟ كما تساءلت: كيف أبدو فى عينيه؟ كنت شابة يافعة عندما أبحر إلى هناك، والآن أنا أم وربة بيت. كيف لم يظهر عليه الإحساس بالإحباط؟

قررت أن أجعله ينتظر: أنا عن نفسى انتظرت طويلاً. كما أننى أحتاج إلى وقت كى أخفى مشاعرى الحقيقية بشأن مسألة شنق خادماتى الاثنتى عشرة الشابات.

من ثم عندما دخلت البهو ورأيته جالسًا هناك، لم أقل شيئًا. لم يضع تليماخوس وقتًا، على الفور حدجنى بنظرة صعبة لأننى لم

أرحب بوالده أكثر من ذلك. وصفنى باحتقار بأن قلبى من حجر صوان.. أرى أن فى ذهنه صورة وردية: سوف يقف الاثنان معًا ضدى، رجال بالغون مع بعضهم، ديكان مسئولان عن حظيرة الدجاج. بالطبع أردت الأفضل له، فهو ابنى، وأملت أن تنجح مساعيه، كقائد سياسى وكمحارب وكأى شىء يريد أن يكونه.. لكن فى تلك اللحظة تمنيت أن تبدأ حرب طروادية أخرى حتى أرسله إليها وأُبعده عنى. الصبية بلحاهم اليانعة قد يصبحون مبعث إزعاج لا يوصف.

لكن مسألة أن قلبى قاسٍ فكرة كنت مستعدة بكل سرور لتقبلها، إذ إنه سوف يسر أوديسيوس ويطمئنه أن يعرف أننى لم ألق بنفسى بين ذراعى كل رجل ظهر معلنًا أنه أوديسيوس. من ثم رحت أنظر إليه نظرة خاوية، وقلت إن الموضوع أكبر من أن أستوعبه، فكرة أن هذا المتشرد القذر الملطخ بالدماء هو فى نفس الوقت زوجى اللطيف الذى خرج فى سفينته، فى ثياب جميلة، قبل عشرين عامًا.

ابتسم أوديسيوس.. كان يتطلع إلى ذلك المشهد الكاشف، حين أقول: كنت أنت طوال هذا الوقت! يا له من تنكر بارع رائع وألف ذراعىّ حول رقبته. من ثم ذهب ليأخذ حمامه الذى يحتاجه بشدة. عندما عاد فى ثيابه النظيفة ورائحته أفضل بكثير من حاله عندما ذهب للاستحمام، لم أتمكن من مقاومة إغاظته مرة أخيرة. أمرت يوريكليا بأن ترفع ذلك السرير إلى خارج حجرة أوديسيوس وأن تأتى به إلى هذا الغريب.

تذكرون أن أحد قوائم السرير كان عبارة عن جذع شجرة منحوت ما زال جذرها يضرب فى الأرض. لا يعرف أحد بذلك

باستثناء أوديسيوس وأنا وخادمتى أكتوريس، من إسبرطة، وقد ماتت منذ زمن طويل.

فكرة أن هناك من قطع قائم سريره المقدس، أفقدت أوديسيوس صوابه على الفور. وقتها فقط أذعنت له، وبدأت مشهد أننى تعرفت عليه. انهمر منى قدر محترم من الدموع، وعانقته، وزعمت أنه نجح فى اختبار قائم السرير، وأننى مقتنعة الآن.

وهكذا مضينا إلى نفس ذلك السرير الذى أمضينا عليه ساعات سعيدة كثيرة فى بداية زواجنا، قبل أن تفكر هيلين فى الهرب مع باريس وتشعل نار حرب وتجلب التعاسة على بيتى. كنت سعيدة أن الوقت أصبح ليلاً، بما أن الظلال ستُظهر قدرًا أقل مما خط الزمن فينا.

قلت: "لم نعد شبابًا ربيعيًا كما كنا".

قال أوديسيوس: "نحن ما نحن عليه".

بعد مرور بعض الوقت وبعد أن أصبحنا نشعر بالرضا من أحدنا الآخر، عدنا إلى عادة حكى الحكايات القديمة. روى لى أوديسيوس كل ما صادف من ارتحال ومشاق.. روى النسخ الأكثر نبلاً، التى فيها الوحوش والربات، وليست تلك الدنيئة الخاصة بأصحاب الحانات والعاهرات. روى الكثير من الأكاذيب التى اختلقها، عن كيف اخترع لنفسه اسمًا مزيفًا، فقال للسيكلوب إن اسمه "لا أحد"، ورأيتها أبرع الخدع التى رواها، وإن كان قد أفسدها علىّ بتباهيه.. وروى من سجلات حياة الاحتيال والنصب التى نسجها لنفسه، وكيف أنه كان الأفضل أن يخفى هويته ونواياه. وأنا بدورى رويت له حكاية الخُطاب وخدعتى الخاصة بكفن لايرتس، وتشجيعى الكاذب

للخطاب والأساليب الماهرة التى استخدمتها لتضليلهم وكيف جعلتهم ينقلبون على بعضهم البعض.

ثم قال لى إنه افتقدنى كثيراً، وكيف أنه كان يموت من الاشتياق لى حتى وهو بين أذرع الربات البيضاء، وقلت له كم زرفت من الدمع فى انتظار عودته عشرين عامًا، وكم كنت مخلصة له إلى درجة الملل، وكيف أننى ما كنت أبدًا لأفكر فى خيانة سريره العملاق بقائمه العجائبى بأن أنام فيه مع أى رجل آخر.

كنا ـ أنا وهو ـ باعتراف كل منا ـ كذابين متقنين للكذب من الطراز الأول. لا عجب لو كنت لا أنا ولا هو صدقنا كلام بعضنا، ولا كلمة منه.

لكننا صدقنا.

هذا ما قلته له وما قاله لى.

ما إن عاد أوديسيوس حتى غادر ثانية. قال إنه ـ على كراهيته الشديدة لأن يفارقنى ـ عليه أن يخرج للمغامرات مرة أخرى. قالت له روح تيريسياس العراف إن عليه أن يتطهر بأن يدخل بمجاديفه عميقًا فى قلب اليابس حتى يظن الناس أن ما فى يديه مروحة لجلب الريح. بهذه الطريقة فقط يتطهر من دماء الخطاب، ويتفادى أشباحهم المنتقمة وأقاربهم الراغبين فى الثأر، ويهدئ غضبة رب البحر بوسيدون، الذى كان ما زال غاضبًا منه لأنه أصاب ابنه السيكلوب بالعمى.

كانت قصة قابلة للتصديق. لكن.. جميع قصصه قابلة للتصديق.

ـ ٢٦ ـ

الجوقة

محاكمة أوديسيوس

كما صورتها الخادمات بكاميرا الفيديو

محامى الدفاع: سيادة القاضى، اسمح لى أن أتحدث عن براءة موكلى، أوديسيوس، البطل الأسطورى ذائع الصيت، الذى يقف أمام عدالتكم متهمًا بقتل العديدين. ألم يكن قتله لهم بالأسهم والرماح مبررًا ـ فنحن لا ننازع فى حقيقة القتل نفسه، أو فى الأسلحة المستخدمة ـ هؤلاء الرجال المائة والعشرون شابًا، أضف إليهم أو اخصم منهم دستة. لا بد أن أشدد سيادة القاضى على أنهم راحوا يأكلون طعامه دون إذن، وأزعجوا زوجته، وخططوا لقتل ابنه واغتصاب عرشه. قال زميلى المحامى المحترم إن جريمة قتل أوديسيوس لا يمكن تبريرها، وإن قتله لهؤلاء الشبان رد فعل متهور وزائد جرّاء أنهم تمادوا قليلاً فى النهم والشره فى قصره.

كما قيل إنه قد عُرض على أوديسيوس وورثته وأهل بيته تعويض مادى على الأعيان والمُستهلكات المفقودة، وأنه كان عليه قبول التعويض فى سلام. لكن هذا التعويض عرضه الشبان أنفسهم الذين رغم طلبات عديدة متكررة، فإنهم لم يبذلوا أدنى جهد قبل موتهم لصد شرهم الملحوظ عنه، أو دفاعاً عن أوديسيوس، لحماية أسرته. لم يظهروا له ولاءً فى غيابه، بل على النقيض. إذن كيف يمكن التعويل على ما ادعوه واعتباره صحيحاً؟ هل يتوقع الرجل العاقل أنهم كانوا ليدفعوا ثورًا واحدًا مما وعدوا بدفعه من تعويض؟

ودعونا نفكر فى الاحتمالات سيدى القاضى. مائة وعشرون - زائد أو ناقص دستة - مقابل شخص واحد - أو لنقل أربعة كحد أقصى، لأن أوديسيوس كان معه شركاء، كما وصفهم الأستاذ المحامى زميلى.. كان معه ابنه الذى شب بالكاد عن الطوق، واثنان من الخدم غير المدربين على القتال... ما الذى كان يمنع هؤلاء الشبان من التظاهر بدخول تسوية مع أوديسيوس، ثم يقفزون عليه ذات ليلة مظلمة وهو مطمئن إليهم فيقتلوه؟ إننا نريد أن نؤكد، أنه بانتهاز هذه الفرصة الوحيدة التى قدمها له القدر، فإن موكلى المحترم أوديسيوس استغلها دفاعًا عن النفس لا أكثر. وبناءً عليه سيادة القاضى نلتمس من عدالتكم الحُكم بحفظ القضية.

القاضى: أنا أميل لموافقتك فى الرأى.

محامى الدفاع: شكرًا لكم سيدى القاضى.

القاضى: ما هذه الجلبة فى الخلف؟ سكوت! سيداتى آرجو الكف عن فضح أنفسكن هكذا! سوين ثيابكن! اخلعن هذه الحبال عن رقابكن! جلوس!

الخادمات: لقد نسيت أمرنا! ماذا عن قضيتنا نحن؟ لا يمكنك أن تدعه يفلت! لقد شنقنا بدم بارد! نحن الاثنتا عشرة! اثنتا عشرة فتاة شابة! بأى ذنب!

القاضى (لمحامى الدفاع): هذه تهمة جديدة. لو تحرينا الدقة لا بد من نظرها فى محاكمة منفصلة، لكن بما أنه يبدو أن الأمرين مرتبطان بشدة، فأنا مستعد لسماع مرافعتك الآن. ماذا لديك لتقوله عن موكلك؟

محامى الدفاع: كان يتصرف من واقع ما له من حقوق سيدى القاضى. هؤلاء جواريه.

القاضى: كلام فارغ، لا بد أن يكون عنده سبب ما. حتى الجوارى يجب ألا يُقتلن هكذا على هوى السادة. ماذا فعلت هؤلاء الفتيات ليستحققن الشنق؟

محامى الدفاع: مارسن الجنس دون إذن.

القاضى: هممم. واضح. مع من مارسن الجنس؟

محامى الدفاع: مع أعداء وخصوم موكلى سيدى القاضى. أولئك الذين كان لهم غرض فى زوجته، ناهيك عن حياته.

(ضحكات على خفة ظله وبديهته الحاضرة)

القاضى: أرى أن هؤلاء هن الخادمات الأصغر.

محامى الدفاع: طبيعى سيدى القاضى، فهن الأجمل شكلاً والأكثر قابلية للاستخدام فى السرير قطعًا. أقصد غالبًا.

الخادمات يضحكن فى أسى.

القاضى (وهو يُقلب صفحات كتاب: الأوديسة): مكتوب هنا فى هذا الكتاب - وهو كتاب نحتاجه لنستنير بما فيه من معلومات، فهو المصدر الأساسى للمعلومات - رغم أن فيه الكثير من الميول اللا أخلاقية ويحتوى على الكثير من الجنس والعنف فى رأيى - مكتوب هنا، فلنر، نعم، فى الفصل ٢٢ أن الخادمات قد تعرضن للاغتصاب. اغتصبهن الخطاب. لا أحد منع الخطاب من اغتصابهن. كما أن الخادمات موصوفات بأنهن تحلقن حول الخطاب لأغراض فاسدة و/أو تجسسية. موكلك كان يعرف كل هذا، فقد قيل إنه ردد هذا الكلام بنفسه. من ثم فالخادمات كن قليلات الحيلة، كما أنهن كن بلا أية حماية. أهذا صحيح؟

محامى الدفاع: لم أكن هناك سيدى القاضى. كل هذا حدث قبل ثلاثة أو أربعة آلاف عام من زمانى.

القاضى: مشكلة فعلاً. استدعوا الشاهدة بينيلوب.

بينيلوب: كنت نائمة سيدى القاضى. فأنا كنت أنام كثيرًا. لا يمكننى إخبارك إلا بما قالوه بعد ذلك.

القاضى: بما قاله من؟

بينيلوب: الخادمات سيدى القاضى.

القاضى: قلن إنهن تعرضن للاغتصاب؟

بينيلوب: نعم سيدى القاضى. ما معناه ذلك.

القاضى: وهل تصدقينهن؟

بينيلوب: نعم سيدى القاضى. أنا أميل لتصديقهن.

القاضى: أعرف أنهن اعتدن قلة الأدب.

بينيلوب: صحيح سيدى القاضى، لكن...

القاضى: لكنك لم تعاقبيهن، واستمر عملهن عندك كخادمات لك؟

بينيلوب: كنت أعرفهن جيداً سيدى القاضى. كنت شغوفة بهن. ربيت بعضهن، سيدى. كُن كبناتى اللاتى لم أنجبهن. (تبدأ فى الانتحاب). أنا حزينة عليهن! لكن أغلب الخادمات يتعرضن للاغتصاب، آجلاً أو عاجلاً، فهى خصلة شائعة من مظاهر حياة القصور. ليست حقيقة تعرضهن للاغتصاب هى ما يدينهن، فى خاطر وتفكير أوديسيوس. بل اغتصابهن دون إذن من السيد.

القاضى (ضاحكًا): عذراً يا مدام، لكن أليست هذه طبيعة الاغتصاب؟ أن تقع الفعلة دون إذن؟

محامى الدفاع: دون إذن سيدهن، سيدى القاضى.

القاضى: واضح واضح. لكن لم يكن السيد حاضرًا. إذن ففى الواقع أجبرت الخادمات على النوم مع الخطاب لأنهن إن قاومن فسوف يُغتصبن على كل حال، وبطريقة أقل لطفاً؟

محامى الدفاع: لا أرى ما علاقة هذا الموضوع بالقضية.

القاضى: ولا موكلك كما يبدو (يضحك). لكن زمان موكلك ليس كزماننا. معايير الأدب والسلوك كانت مختلفة حينها. من سوء طالعى أن تقف هذه القضية الصغيرة والمؤسفة فى آن فى طريق حياتى الوظيفية المتميزة للغاية. كما أننى لا أريد أن أصبح مذنبًا بجريمة "انتزاع حدث من سياقه التاريخى غصبًا". وبناءً عليه، لابد أن أحفظ هذه القضية.

الخادمات: نحن نطلب العدالة! نطلب الإنصاف! نطالب بتطبيق قانون العين بالعين! فلتحضر الغاضبات!

فرقة من اثنتى عشرة ربة من ربات الانتقام الغاضبات تظهر. شعرهن من الثعابين ورؤوسهن رؤوس كلاب وأجنحتهن أجنحة وطاويط. يتشممن الهواء بصوت مسموع.

الخادمات: يا الغاضبات، يا المنتقمات، أنتن أملنا الأخير! نتوسل إليكن أن تنزلن العقاب وتنتقمن لنا! فليكن غضبكن حامينا، بعد أن غابت عنا كل حماية ونحن على قيد الحياة! ابحثن عن أوديسيوس حيثما ذهب! من مكان إلى آخر، من حياة إلى أخرى، بغض النظر عن تنكره، بغض النظر عن أى شكل يتخذ، اصطدنه! تعقبن خطاه، على الأرض وفى هيدز، حيثما التجأ، فى الأغنيات وفى المسرحيات، فى الكتب وفى رسائل الدكتوراه والماجستير، فى الكلمات المدونة بالحواشى وفى الملحقات! اظهرن له على هيئاتنا، فى هيئاتنا المحطمة، هيئات جثثنا الجديرة بالشفقة! فلتغب عنه الراحة إلى الأبد!

ربات الانتقام يلتفتن إلى أوديسيوس. عيونهن تقدح شررًا أحمر.

محامى الدفاع: فلتحضر أثينا ذات العينين الزبرجديتين، ابنة زيوس الخالدة، لتدافع عن حقوق الملكية وحقوق الرجل فى أن يكون ربًا لبيته، ولتخبئ موكلى فى السحب البعيدة!

القاضى: ماذا يحدث؟ هدوء! هدوء! هذه محكمة من محاكم القرن الحادى والعشرين! أنت يا ابنتى، انزلى من على السقف! فليتوقف نباحكن وهسيسكن! يا مدام، غطّى صدرك وأنزلى رمحك! ماذا تفعل هذه السحابة هنا؟ أين الشرطة؟ أين المدعى عليه؟ أين ذهب الجميع؟

ـ ٢٧ ـ

الحياة المنزلية فى هيدز

كنت أتفرج على عالمكم تلك الليلة، استخدم عينى وسيطة روحانية. أرادت زبونتها الاتصال بحبيبها الميت لتسأله إن كان عليها بيع شقتهما، لكننى تمثلت لهما بدلاً منه. عندما تحدث انفراجة، فكثيرًا ما أقفز لأشغلها. أنا لا أخرج بالقدر الذى أرغبه.

لا أقصد توبيخ مضيفى، لكن من المدهش لأى درجة يستمر الأحياء فى التحرش بالموتى. من عصر إلى عصر لا يتغير الأمر كثيرًا، رغم أن السبل تختلف. لا يمكننى القول بأننى أفتقد العرافات كثيرًا ـ العرافات وقدورهن الذهبية، وإزعاجهن البالغ لنا هنا فى الأسفل، رغبة فى معرفة المستقبل، وإزعاجًا للأرواح ـ لكن على الأقل كانت العرافات يتمتعن بقدر من التهذيب. السحرة ومحضرو الأرواح الذين ظهروا بعد ذلك هم الأسوأ، رغم أنهم يأخذون الموضوع بجدية مبالغ فيها.

لكن جماعة اليوم أكثر تفاهة من استحقاق أى اهتمام يُذكر. يريدون معرفة أسعار الأسهم فى البورصة فى المستقبل ومصير السياسة العالمية وتطورات مشاكلهم الصحية وأشياء غبية من هذا النوع، بالإضافة إلى رغبتهم فى الحديث مع الكثير من المجاهيل فى عالمنا، ممن لا يفترض فينا أن نعرفهم. من هى "مارلين" التى يحرص الجميع على استحضارها؟ من هو "أدولف"؟ إنها طاقة مهدرة، أن نضيع وقتًا مع هؤلاء الأشخاص، مسألة مثيرة للغضب.

لكن بالنظر من خلال ثقوب الباب الصغيرة هذه، أتمكن من متابعة ما يفعله أوديسيوس، أثناء تلك الفترات التى لا يكون فيها هنا، على هيئته المألوفة.

أعتقد أنكم تعرفون القواعد. إذا رغبنا يمكننا أن نولد من جديد، وأن نجرب الحياة مرة أخرى، لكن أولاً علينا أن نشرب من مياه النسيان، فتُمسح من ذاكرتنا حيواتنا السابقة. هذه هى النظرية، لكن مثل كل النظريات، هى مجرد نظرية. مياه النسيان لا تفعل فى كل مرة المفترض بها أن تفعله. الكثير من الناس يذكرون كل شىء. بعضهم يقولون إن هناك أكثر من نوع واحد من المياه... أن مياه التذكر موجودة أيضًا. عن نفسى لا أعرف.

خرجت هيلين فى بعض الغزوات الصغيرة. هكذا تسميها "غزواتى الصغيرة.. استمتعت بوقتى كثيرًا". هكذا تستهل كلامها، ثم تتحدث تفصيلاً عن غزواتها وتطلعنى على خطوط الموضة الجديدة. من خلالها عرفت بلصقات الإقلاع عن التدخين، والنظارات الشمسية، والتنانير الفيكتورية العريضة، والحذاء عالى الكعب، والحمالات، والبيكينى، وتمارين الأيروبكس، والـ بودى

بيرسينج، وعمليات شفط الدهون. ثم إنها تدلى بخطبة عن كيف كانت شقية وعن كمية الجدل الذى أثارته وكم من الرجال حطمت حياتهم. سقطت إمبراطوريات بسببى.. هكذا تحب أن تقول.

أقول لها لأكسر مجاديفها نوعًا: "أفهم أن تفسير مسألة حرب طروادة قد تغير. الآن هم يرونها مجرد أسطورة. المسألة فى الواقع كانت متعلقة بطرق التجارة. هذا ما يقوله الباحثون فى هذا الموضوع الآن".

تقول: "يا بينيلوب، ألا تكفين عن الغيرة. بالطبع يمكننا الآن أن نصبح أصدقاء! لم لا تأتين معى إلى عالم الأحياء المرة القادمة؟ يمكن أن نخرج فى رحلة إلى لاس فيجاس، ونعيش ليلة من ليالى العزوبية! لكن نسيت.. ليس هذا أسلوبك. أنت تفضلين لعب دور الزوجة الوفية الظريفة، ومسألة الغزل والخيوط وهذا الكلام. أما أنا سيئة الأخلاق فلا يمكننى هذا أبداً، أموت من الملل. لكنك كنت دائمًا تحبين الحياة المنزلية".

إنها محقة. لا يمكننى أبدًا أن أشرب مياه النسيان. لا أرى ما الفائدة من هذا الموضوع. لا: أُقر بصحة كلامها، لكن لا أريد أن أخاطر. حياتى الماضية كانت عامرة بالمشكلات، لكن من قال إن الحياة القادمة لن تكون أسوأ؟ حتى بقدرتى المحدودة على المعرفة أرى أن العالم خطير بقدر ما كان فى زمانى، باستثناء أن التعاسة والمعاناة على نطاق أوسع بكثير الآن. أما عن طبيعة النفس البشرية، فهى مخزية كعهدى بها دائمًا.

لا شىء من هذا الكلام يردع أوديسيوس. فهو يتوقف عندنا هنا فى الأسفل قليلاً، من الحين للآخر، ويتظاهر بأنه مسرور لرؤيتى،

ويقول لى إن الحياة المنزلية معى هى الشىء الوحيد الذى يريده طيلة عمره، بغض النظر عن الجميلات الساحرات اللاتى ينالهن. نتمشى فى هدوء وخفة، نأكل بعضًا من الأسفوديل، ونروى الحكايات القديمة، وأسمع ما عنده من أنباء عن تليماخوس، فقد أصبح نائبًا فى البرلمان، كم أنا فخورة به!.. وعندما أبدأ فى الاسترخاء، عندما أشعر أن بإمكانى أن أغفر له كل شىء عرضنى له وأقبله بكل عيوبه، عندما أبدأ فى تصديق أنه هذه المرة سينفذ وعوده، يبتعد ثانية، قاصدًا نهر ليث مباشرة حيث سيولد من جديد.

إنه يعنى ما يقوله، حقًا يعنيه. يريد أن يكون معى. يبكى وينتحب وهو يقول هذا الكلام. لكن تظهر قوة ما تفرقنا.

إنهن الخادمات. يراهن على بعد، يتجهن إلينا. يصبنه بالتوتر. يشعر معهن بالقلق والاضطراب. يؤلمنه. يريد الفرار منهن إلى أى مكان ولأى ناس غيرهن.

كان جنرالاً فرنسيًا، وكان غازيًا منغوليًا، وكان رجل أعمال من ملياردير أمريكا، وكان صائد غزلان فى جزيرة بورنيو الأندونيسية. وكان نجمًا سينمائيًا، ومخترعًا، وموظف دعاية وإعلان. الأمر ينتهى دائمًا نهاية مؤسفة، بانتحار أو حادث أو وفاة فى معركة أو اغتيال، ثم يعود إلى هنا من جديد.

أصيح فى الخادمات: "لم لا تتركنه لحاله؟" اضطر للهتاف لأنهن لا يدعننى أقترب منهن.. "هذا يكفى! لقد تاب وتطهر، وتلا الصلوات، وغُفر له ما تأخر من ذنبه!"

يصحن فى: "هذا لا يكفينا".

أسألهن وقد بدأت دموعى تنهمر: "ماذا تردن منه غير ذلك؟ دعونى أعرف!"

لكنهن يجرين، يهرين.

الجرى ليس الكلمة الدقيقة. لم تعد لهن أرجل يتحركن بها. أرجلهن المرتعشة من المشنقة حتى الآن، لا يمكنها أن تلامس الأرض.

ـ ٢٨ ـ

الجوقة

نحن نسير خلفك.. أغنية حب

هيه هيه! أنت يا تافه! يا من لا اسم له! سيدنا سيد الأوهام! سيد خفة اليد، سليل اللصوص الكذابين!

نحن هنا بدورنا، بدورنا بلا أسماء. الأخريات بلا أسماء. من غرس فينا الآخرون الخزى. من يُشار إليهن بالاتهامات، من نالت من أجسادهن الأصابع.

فتيات الخدمة الشاقة، ذوات الوجنات البراقة، الضاحكات بلا سبب، المفعوصات الصغيرات، غاسلات الدم، الشابات.

نحن اثنتا عشرة. اثنتا عشرة فتاة متشردة على هيئة أقمار، اثنا عشر فمًا لذيذًا، أربعة وعشرون ثديًا كالوسادة المريحة، والأهم: أربع وعشرون قدمًا ترتعد مُعلقة.

أتذكرنا؟ بالطبع تذكرنا! فلقد جلبنا لك الماء لتغسل يديك، وغسلنا رجليك، ونظفنا ثيابك المتسخة، ودلكنا كتفيك بالزيت، وضحكنا على نكاتك، وطحنا قمحك، وتقلبنا على سريرك المريح.

علقتنا من المشانق، علقتنا عاليًا، تركتنا نتأرجح عليه كقطع الغسيل على الحبل. يا لشماتتك ويا لمتعتك! أنت يا صاحب الذات الفاضلة، يا ماش على الصراط المستقيم، يا متطهر يا تائب، والآن هأنت تخلصت من الفتيات القذرات المتمرغات فى الوحل والطين وأخرجتهن من رأسك!

كان لا بد أن تدفننا دفنة لائقة. كان لا بد أن تسكب على أجسادنا النبيذ. كان لا بد أن تصلى لنا طالبًا منا المغفرة.

والآن لا يمكنك التخلص منّا، حيثما ذهبت. فى حياتك وفى مماتك وفى أى حيوات أخرى.

نراك من وراء كل أشكال التنكر.. فى دروب النهار وفى مسارات العتمة، حيثما قصدت من طرق ومسالك، ستجدنا خلفك، نتبعك كسحابة من الدخان، كذيل طويل، ذيل من الفتيات، ثقيل كالذاكرة، خفيف كالهواء.. اثنتا عشرة تهمة، أصابع أقدامنا تلامس الأرض، أيدينا مربوطة وراء ظهورنا، ألسنتنا تبرز من الأفواه، أعيننا جاحظة، الأغانى مختنقة فى حلوقنا.

لماذا قتلتنا؟ ماذا فعلنا لك لنستحق موتنا؟ لم تجبنا أبدًا.

كانت فعلة حاقدة سوداء، كانت فعلة احتقار، حادثة شرف.

هيه هيه، يا أستاذ مهذب، يا أستاذ طيب، يا أستاذ رب، يا سيدى القاضى! انظر وراءك! ها نحن، نسير خلفك، قريبًا قريبًا منك، قريبًا كقبلة، قريبًا كجلدك.

نحن الفتيات الخادمات، ونحن هنا لخدمتك أيضًا. نحن هنا لنعطيك ما تستحق. لن نتركك أبدًا، سوف نلازمك كظلك، ناعم وملتصق كالغراء. الخادمات الجميلات، صف واحد لا يفترق.

ـ ٢٩ ـ

تذييل

لا صوت لنا

لا اسم لنا

لا اختيار لنا

لا وجه لنا

وجه واحد للجميع.

لامونا نحن

ولم يكن هذا عدلاً

لكن ها نحن هنا الآن

كلنا هنا

مثلك تمامًا.

والآن سنلاحقك

سنجدك

الآن، نناديك

أنت، أنت

أنت ولا أحد

غيرك

أنت ولا أحد

غيرك.

ينبت للخادمات ريش.. ويحلقن في الهواء مثل البوم.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتر.

٣ ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

٥ ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

٦ ـ «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

٧ ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

٨ ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

٩ ـ «العاشقات».. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٠ ـ «نوّة الكرم».. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

١١- «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى «إيتالوكالڤينو».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريجيو.

١٢- «القلعة البيضاء».. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٣ - «أين تذهب طيور المحيط».. للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

١٤ ـ «قرية ظالمة».. للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

١٥ ـ «الرجل البطىء».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى».. رواية .. جائزة نوبل.

١٦ ـ «طحالب».. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ ـ «شوشا».. للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ - «شارع ميجل».. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

١٩ ـ «الحياة الجديدة».. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

٢٠ ـ «عشر مسرحيات مختارة».. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٢١ ـ «الآخر مثلى».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

٢٢ ـ «المستبعدون».. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٣ ـ «الأنثى كنوع».. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ «ثلاثة أيام عند أمى».. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

٢٥ ـ «إسطنبول.. الذكريات والمدينة».. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

٢٦ ـ «الطوف الحجرى».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٧ ـ «نار وريبة».. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور».. مختارات..جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

٢٨ ـ «الذكريات الصغيرة».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ «إليزابيث كُستّلّو».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.

٣٠ ـ «السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود».. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ «حين تقطعت الأوصال».. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

٣٢- «مارتش».. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس».. رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - «اغتنم الفرصة».. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٤ - «البصيرة».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - «بريك لين».. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- «بريد بغداد».. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - «عن الجمال».. للكاتبة البريطانية «زادى سميث».. رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - «العار».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - «قبلات سينمائية».. للكاتب الفرنسى «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ «هكذا كانت الوحدة».. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ «الشلالات».. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ «العشب يغنى».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ «العالم».. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ ـ «ميراث الخسارة».. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. رواية.. جائزة البوكر.

٤٥ ـ «الطفل الخامس».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ ـ «بن يجوب العالم».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ ـ «ثورة الأرض».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٨ ـ «ملك أفغانستان لم يزوجنا».. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

٤٩ ـ «الكهف».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٠ ـ «يوميات عام سيئ».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٥١ ـ «كازانوفا».. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.

٥٢ ـ «انقطاعات الموت».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٣ ـ «العم الصغير».. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب المنفى.

٥٤ ـ «اللعب مع النمر».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٥ ـ «فى أرضٍ على الحدود».. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

٥٦ ـ «الإرهابية الطيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ «المسرحيات الكبرى» جـ١ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ «المسرحيات الكبرى» جـ ٢ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ «نصف شمس صفراء».. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى .. رواية..جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ«الحوت».. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٣ ـ «رقة الذئاب».. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ «رحلة العم مآ».. للكاتب الجابونى «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٦٥ ـ «مسيرة الفيل».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ «كرسى النسر».. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

٦٧ ـ «داى».. للكاتبة الأسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ ـ «الحب المدمر».. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ ـ «أين نذهب يابابا»؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٧٠ ـ «نداء دينيتى».. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٧١ ـ «صخب الميراث».. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٧٢ ـ «المؤتمر الأخير».. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

٧٣ ـ «كتاب الرسم والخط».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٧٤ ـ «كلُّ رجل».. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٧٥ ـ «نُريد أن نتحدث عن كيڤين».. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.

٧٦ ـ «ألم فذ».. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

٧٧ ـ «أناقة القنفذ».. للكاتبة الفرنسية «موريل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

٧٨ ـ «حزن مدرسى».. للكاتب الفرنسى «دانيل بناك» رواية.. جائزة روندو.

٧٩ ـ «غدًا».. للكاتب الألمانى «فالتر، كاباخر».. رواية.. جائزة جورج بوشنر الكبرى.

٨٠ ـ «الكلمة المكسورة».. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

٨١ ـ «أن نُصبح أغرابًا».. للكاتبة الإنجليزية «لويز دين».. رواية.. جائزة بيتى تراسك.

٨٢ ـ «المرأة المسكونة».. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة كاسا دى لاس أمير كاس.

٨٣ ـ «بيتر كامينتسند».. للكاتب الألمانى «هِرْمَن هيسّه».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة نوبل.

٨٤ ـ «بيت السيد بيسواس».. للكاتب من ترينداد «ف. س . نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

٨٥ ـ «مدريد الأصيلة».. للكاتب الإسبانى «كارلوس أرنيتشيس».. مسرح.. وسام الاستحقاق.

٨٦ ـ «لافينيا».. للكاتبة الأمريكية «أوروسولا كى لى جوين».. رواية.. جائزة ديمون نايت التذكارية الكبرى.

٨٧ ـ «أشجار متحجرة».. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

٨٨ ـ «سنوات الهروب».. للكاتب الكولومبى «بلينيو أبوليو ميندوثا».. رواية.. جائزة بلازا إي خانيس.

٨٩ ـ «الباحث عن الذهب».. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

٩٠ ـ «جائزة أو. هنرى».. مجموعة من المؤلفين.. قصص قصيرة.. القصص الفائزة بجائزة أو. هنرى لـ عام ٢٠٠٧.

٩١ ـ «الحيوان المُحتضر».. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة بن /نابوكوف.

٩٢ ـ «أنشودة ألاباما».. للكاتب الفرنسى «جيل لوروا».. رواية.. جائزة الجونكور.

٩٣ ـ «إنجيل الابن».. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. رواية.. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٤ ـ «الوصمة البشرية».. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٩٥ ـ «ليتنى لم أقابل نفسى اليوم».. للروائية الألمانية «هيرتا موللر».. رواية.. جائزة نوبل.

٩٦ ـ «حكاية أوزوالد جـ١».. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الأول. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٧ ـ «حكاية أوزوالد جـ٢».. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الثانى. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٨ـ «وبنى لها معبدًا».. للكاتب الألمانى «سيجفريد أوبرماير.. رواية.. جائزة شيلزهايم.

٩٩ ـ «جنون المتاهة».. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدر».. رواية..جائزة صندای تايمز لكاتب شاب.

١٠٠ ـ «الملك ينحنى ليقتل».. للكاتبة الألمانية «هيرتا موللر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

١٠١ ـ «العبد».. للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية.. جائزة نوبل.

١٠٢ ـ «الفراشة والدبابة».. للكاتب الأمريكى «إرنست همنجواى».. قصص.. جائزة نوبل.

١٠٣ ـ «التجمع».. للكاتبة الأيرلندية «آن إنرايت».. رواية.. جائزة البوكر.

١٠٤ ـ «موندو».. للكاتب الفرنسى «ج.م.ج لوكليزيو» قصص.. جائزة نوبل .

١٠٥ ـ «الكون فى راحة اليد».. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلى».. رواية.. جائزة اتحاد الناشرين.

١٠٦ ـ «جزيرة صغيرة».. للكاتبة الإنجليزية «أندريا ليفى».. رواية.. جائزة الأورانج .

١٠٧ ـ «حياتى».. للكاتبة الأمريكية «إيزادورا دونكان».. سيرة ذاتية.. جائزة الكتاب القومى .

١٠٨ ـ «تيو».. للكاتبة النيوزيلندية «باتريشيا جريس».. رواية.. جائزة ميدالية ديوتيز للرواية.. وجائزة مونتانا للرواية.

١٠٩ ـ «الجولة وحوادث مؤثرة أخرى».. للكاتب الفرنسى «ج. م. ج لوكليزيو».. قصص.. جائزة نوبل.

١١٠ ـ «ذهول ورعدة».. للكاتبة الفرنسية «إميلى نوتومب».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

١١١ ـ «أوليف كيتريدج».. للكاتبة الأمريكية «إليزابيث ستراويت».. رواية.. جائزة البوليتزر.

١١٢ ـ «زهرة الكركديه الأرجوانية».. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى».. رواية.. جائزة الكومنولث لأفضل كتاب أول.

١١٣ ـ «ثمة شىءٌ أقول لكم».. للكاتب البريطانى من أصول باكستانية «حنيف قريشى».. رواية.. جائزة بن بنتر للأدب.

١١٤ ـ «قلبٌ ناصعُ البياض».. للكاتب الإسبانى «خابير مارياس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب (تشيلى).

١١٥ ـ «كتاب الزنوج».. للكاتب الكندى «لورانس هيل».. رواية.. جائزة الكومنولث للكتاب.

١١٦ ـ «ملك كاهل».. للكاتب الفرنسى «تيرنو مونينمبو».. رواية.. جائزة رينودو.

يصدر قريبًا من هذه السلسلة

١ ـ الإحساس بالنهاية.. جوليان بارنز.. جائزة البوكر الدولية.. ٢٠١١.

٢ـ رُبَّ جملة بعشرة آلاف جملة.. ليو تجن يون.. جائزة ماودون.. ٢٠١١.

٣ـ حب الغربان.. بيتر فافرتسينيك.. جائزة إنجبورج باخمان.. ٢٠١٠.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الرواية:

وصلتنا أنباء عن أحوال الحرب مع طروادة: أحيانًا أخبار سارة وأحيانًا سيئة. أنشد الشعراء الأناشيد عن الأبطال الجبارين: أخيل وأجاكس وأجاممنون ومنلاوس وهكتور وإينياس والبقية. لم أهتم بهم. ردت أنتظر أخبار أوديسيوس، متى يعود ويعتقني من هذا الضجر؟ هو بدوره ظهر في الأناشيد وكنت أجتر تلك اللحظات اجترارًا، ها هو هنا يلقي خطبة عصماء، أو هناك يودد الفرقاء.. هنا يخترع كذبات مبهرة، أو هناك يقدم المشورة السديدة.. هنا يتخفى كعبد هارب ويتسلل إلى طروادة ويكلم هيلين نفسها، والتي كما قالت الأناشيد.. حممته وعمدته بالزيت بيديها.

الروائية: مارجريت أتوود، كاتبة كندية

الجائزة: وسام الفنون والآداب الفرنسي